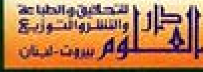

المرتضى
مكتبة السودانية

خطوة في عمق التشيّع

السيد عبد المنعم حسن







خطوة في عمق التشيع



خطوة في عمق التشيع



بقلم

السيد عبد المنعم حسن







تلفون : ٢٥٥٢٥٦٠ - فاكس : ٢٥٥٢٥٧٠ - ص.ب : ١١٩٨٩ - الدسمة

الرمز البريدي : 35160 الكويت

دار العلوم للتحقيق والطباعة والنشر والتوزيع

المكتبة : حارة حريك ـ بئر العبد ـ شارع السيد عباس الموسوي ـ الهاتف : ٠١/٥٤٥١٨٣ ـ ٠٣/٤٧٣٩١٩ ـ ص.ب : ١٣/٦٠٨٠

المستودع: حارة حريك ـ بئر العبد ـ مقابل البنك اللبناني الفرنسي ـ تلفاكس : ٠١/٥٤١٦٥٠

www.daraloloum.com E-mail : daraloloum@hotmail.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿٢﴾ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ﴿٣﴾ مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ﴿٤﴾ إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ﴿٥﴾ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴿٦﴾ صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ وَلَا الضَّالِّينَ ﴿٧﴾

مقدمة

الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعماءه العادّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بُعْدُ الهِمَم، ولاينالـه غَـوصُ الفِطَن، أحمده استتماماً لنعمته، واستسلاماً لعزته، واستعصاماً من معصيته، وأستعينه فاقة إلى كفايته، إنه لا يضل من هداه ولا يئل من عاداه ولا يفتقر من كافاه.

والصلاة والسلام على أفضل خلقه وخاتم أنبيائه، المبعوث رحمة للعالمين، المصطفى الأمجد أبي القاسم محمد، وعلى آله الطاهرين، موضع سره ولجأ أمره وعيبة علمه، أساس الدين وعماد اليقين، إليهم يفيء الغالي وبهم يلحق التالي، صلوات ربي عليهم أجمعين.

وبعد...

ما زالت تجربتي تفرض علي المواصلة في المسير بذات المنهج...

ألتقط الأجر محتسباً القليل الذي أبذله عند الله تعالى، موقناً أيما يقين بما أنا عليه من هدى، رغم تصرف الزمان وتكالب المنافقين وكثرة الجاهلين.

بعد عناء شديد ونصَب، رأى كتابي الأول «بنور فاطمة اهتديت» النور، وقد طال بي العهد منذ كتابته إلى حين طباعته، ووقفت الظروف حائلاً بيني وبين أن أسعد بما سطرته من كلمات أحسب أنها قطرة من فيض إلهي غمرني به المولى عزّ وجلّ، فأحببت أن يشاركني الآخرون، وبحمد الله تعالى طبع الكتاب، وأسأل الله أن يجعله ذخراً لي في الآخرة يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم.

وها أنذا بعد فترة أخرى أحاول أن أضيف شمعة تضيء الظلام الذي أضحى يلف الجزء الأكبر من الأمة الإسلامية، وأن أصرخ لتنبيه الغافلين والسائرين في ركاب الجهلة، ممتطين الهوى والتكبر وكل الرذائل التي تقف سداً منيعاً يمنع تسرب أشعة النور إلى أفئدتهم.

ما زالت تجربتي ساخنة كسخونة القضية... ترفدها دماء الزهراء والحسين عليهما السلام ... مستصحباً كل آلامي التي عشتها منذ أول يوم رأيت فيه صدق الحقيقة، والتمست فيه أيادي اللطف الإلهي، فانتشلتني من وادي الجهل والخرافة، إلى رحاب أهل البيت عليهم السلام ، فاطمأن قلبي وهدأ بالي.

ولكن أبى الآخرون ممن هم حولنا إلا أن يؤذوننا بالغمز واللمز تارة، وبفصيح العبارة تارة أخرى... لا يواجهوننا بالدليل والبرهان والحجة، فهم أجبن من أن يفكروا بالمواجهة، كما أنهم الجهل يمشي على رجلين، ولو كان الجهل بشراً لكانوا هم، ومما زاد من ألمي أن بعضهم ممن نحسبهم من المقربين لدينا، يبدون لنا بشاشة الوجه ومن خلفنا يختلقون الأكاذيب، وينسجون من خيالهم المريض أحاجيَ يُسَلّون بها صغارهم، ويدسون بها جهلهم وحمقهم...

رغم ذلك لم ولن نلتفت إليهم، لأننا نزداد كل يوم يقيناً في ديننا وبصيرة فيهم، وما ظلمونا ولكن أنفسهم كانوا يظلمون، وأنا على يقين من أن لهم حلوم الأطفال وعقول ربات الحجال... ذكرتهم هنا استطراداً لبيان مشكلة الجهل والغفلة التي تعيشها الأمة، مما جعلها تتنكب الطريق، وتحيد عن الصراط المستقيم...

رغم هؤلاء الذين فضلنا أن نسير فيهم بنهج ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الجَاهِلونَ قَالُواْ سَلاَماً﴾، فإن الأمر لا يخلو من وجود العقلاء الذين وإن لم يُسَلّموا للحق، إلا أنهم احترموا عقولنا لأنهم رأوا فينا صدق العقيدة وصفاء السريرة...

إلى أمثال هؤلاء نرسل الصيحات لعل الله يهديهم إلى الحق... وإلى كل الأحرار وذوي النهى سنكتب الكتاب تلو الكتاب، ونسطر للتاريخ ونشهد الملائكة والأنبياء على صدق دعوانا، مستلهمين من الرسول الأعظم محمد بن عبد الله صلى الله عليه وآله صدق العزيمة وقوة الإرادة، حاملين رايته وراية الأئمة من ذريته، الذين اصطفاهم الله وفضلهم على العالمين.

لقد عشت مع النبي صلى الله عليه وآله وصاياه بأهل بيته عليهم السلام وحرصه الأكيد على الأمة حتى لا تضل من بعده، وكأني به وهو يصرخ في الملأ: «يا أيها الناس إني تارك فيكم الثقلين ما إن تمسكتم بهما لن تضلوا أبداً كتاب الله وعترتي أهل بيتي، ألا وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما... أذكركم الله في أهل بيتي.. أذكركم الله في أهل بيتي.. أذكركم الله في أهل بيتي»[1]، ولو لم يوجد في كتب المسلمين غير هذا الحديث لكفاهم حجة وبرهاناً إن كانوا يريدون اتباع الرسول صلى الله عليه وآله بصدق وإيمان.

هكذا أرادها الرسول بإرادة الله عزّ وجلّ صرخة تجلجل لتعم الآفاق، ونوراً يهتدي به من أراد الهداية، أما من أبى سيسلكه سقر، وما أدراك ما

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ مختلفة وطرق عديدة.

سقر، لا تبقي ولا تذر.

إنه حديث عن الهداية والضلالة، وحديث عن الجنة والنار، حتى لا يتشدق المتشدقون، ولا يخوض في الحديث معنا الجاهلون، ولا يرجف المرجفون ويصورون للبسطاء من الأمة أن الحديث عن الشيعة وأهل السنة حديث ممجوج، وبحث في التاريخ لا جدوى منه في حاضرنا... إذاً لو كان الأمر كذلك فلنعرض عن كل ما يسمى تاريخاً، وحينها يسقط التكليف وتكون الحجة لنا على الله، ويصبح الحديث عن الصحابة وإثبات عدالتهم ضرباً من ضروب الحفر التاريخي، كما أن الاهتمام بالبخاري ومسلم وغيرهما هلوسة لا تنفع لحاضرنا، أليس كذلك؟!!

إن الدعوى التي ينعق بها شذاذ الآفاق بعدم أهمية البحث في التاريخ إنما هي قمة الجهل... لأننا لم نجد شيئاً في ديننا إلا وارتبط بالتاريخ.. السيرة... الحديث... التفسير ويشمل ذلك الأحكام الشرعية في أبسط صورها، يمارس فيها الجميع البحث في التاريخ شاؤوا أم أبوا!

هكذا في الأحكام الشرعية التي قد يخالف بعضها الواقع، ونطبقها عملاً بها رخصة من الشارع كما في أصلي الاستصحاب والبراءة، والحال أن حديثنا عن المعتقد وأصول الدين وليس أصول الفقه... أصول دين الله

الواحد التي يجب أن لا نختلف حولها، كما أنه لا يمكن أن تكون مخالفة للواقع بحال من الأحوال، فلا يجوز فيها الاستصحاب الذي يتجلى في صورة إنا وجدنا آباءنا على ملة وإنا على آثارهم مهتدون «اتباع الآباء والأجداد»، يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ البقرة/١٧٠.

من الذين ضلوا في السابق ـ والآن ولاحقاً ـ كان سبب ضلالهم اتباعهم آباءهم، والقرآن الكريم يحذر الآخرين من احتمال ضلال الآباء، فلا يجوز الركون إليهم إلا بعد التعقل والتأكد من أنهم على هدى، وهنا يجب أن نبعد العاطفة الجوفاء والعصبية، هكذا يعلمنا القرآن، فترى آيات الذكر الحكيم بالبصائر المعينة على منهجة التفكير والوصول إلى الحقائق...يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَآ أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَآ أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ المائدة/١٠٤.

وسنزيدك عزيزي القارئ في الأبحاث القادمة من نوع هذه الآيات التي تذكر بحقيقة هذا الحجاب السميك الذي يحجب غالبية البشر عن التعرف على الحق واتباعه، وهناك غيره من الحجب... وسيكون تركيزي على

نفض الغبار من حول نور العقل لنرى الأشياء على حقيقتها، لا كما يزينها لنا الشيطان، وتسرح معها النفس الأمارة بالسوء.

ومن خلال تجربتي القصيرة هذه تبين لي أن القضية ليست قضية دليل وبرهان.. إذ إن الدليل والبرهان يحتاج إلى تهيئة سابقة ترتبط بالنفس وما تحمله من مشاكل ومعوقات... لقد دخلت في حوار مع من يحسب نفسه عالماً... كما جلست إلى الكبير والصغير والرجل والمرأة، فكانت المشكلة الكبرى في العقد النفسية، والفهم المقلوب.. والأهواء والشهوات، فلم ينفع الدليل ولا البرهان، مع أن الأمر أوضح من أن يحتاج إلى هٰذا الكم الهائل من الأدلة التي حشدها الشيعة قديماً وحديثاً في أسفار عديدة ومجلدات ضخمة، ولم يتركوا شاردة ولا واردة إلا أحصوها في كتب مبينة.. ماذا يريد العقلاء أكثر من ذلك؟!!

ومع ذلك سأعقب بحوثي بأدلة أخرى تؤكد جدارة مدرسة أهل البيت عليهم السلام على أن تكون هي الفرقة الناجية التي تحدث عنها النبي الأكرم صلى الله عليه وآله.

جلست إلى أحد أقربائي وأنا أعلم أنه قرأ من الكتب وسمع من الأدلة ما يشفي غليل الظامئ في صحراء الطريق إلى الحق... ناقشته من جديد

فبدا وكأنه لم يسمع بالشيعة من قبل...

سألته، أنت تصحب الشيعة كثيراً سمعت وقرأت ورأيت فما رأيك؟.

قال، أنا سني هٰذا ما أعرفه وأتيقن منه، وللشيعة أدلتهم كما أن لأهل السنة بلا شك أدلتهم.

قلت له، الآن أنت في مفترق الطرق وعليك أن تختار فترجح دليلاً وترفض الآخر.

قال لي، كيف لي أن أرجح وأنا لا أستطيع ذلك؟!

قلت، ألا ترى أن الله قد أعطاك العقل والإرادة والحرية على الاختيار لتحديد مسار حياتك...؟ ألا تريد أن تعرف طريق الجنة فتسلكه وتذر غيره من الطرق والسبل؟.

قال، نعم.

قلت، إذاً الواجب والواقع يحتم عليك أن ترجح وتخضع للدليل القوي والسليم، ودعني أساعدك ولنبدأ... ثم سردت عليه مجموعة من الأدلة من الكتاب والسنة تؤكد على وجوب اتباع أهل بيت الرسالة عليهم السلام ... فما كان منه إلا أن قال لي، هذه الأدلة صحيحة!

قلت له، إذاً ماذا؟!.

قال: لكن للسنة أدلتهم وحججهم...

قلت: أنا لا أقول أنهم لا يملكون (الأدلة)، ولكن يجب البحث عن أيهما أصح؟.

دعني أخوض معك في النقاش حول أدلتهم... هاتها لأبين لك أيهما أصح... وربما تهديني إلى أن أرجع عما أنا عليه.

قال: أنا لا أعلمها!.

فأغلقت معه باب الحوار... الآن عزيزي القارئ أترك لك الرأي..

كما جلست مرات ومرات مع آخر يكبرني ببضع سنين، وكان ملخص حجته قوله إنه ولد ووجد نفسه ضمن ما يعرف بأهل السنة والجماعة، فإن كان سيدخل النار فلا يبالي لأنه لن يغير ما هو عليه...

نعم حديثي موجه للذين يبالون ويبحثون بصدق عن طريق الهدى والتمسك به وإن قل سالكوه، لا إلى أولئك الذين يستوي عندهم الأمر.

إن ما نقول به وندعو إليه هو بداية الطريق للوحدة الإسلامية المنشودة... الوحدة التي تقوم على أسس سليمة قوامها الحجة والبرهان... إنها دعوة لنجلس جميعاً ونمحص أمورنا.

أذكر هذا الكلام وفي ذهني أولئك الذين يدورون في فلك اللاوعي،

معتبرين أن نقاش المستنيرين يؤدي إلى الفرقة ويبعدنا عن الوحدة، ولا أدري أي فرقة بعد هذا الذي نعيشه؟!. لقد تفرقنا طرائق قدداً وسمل جلباب الدين.

إن الوحدة التي تكرس هذا الواقع الفاسد حريٌ بنا أن نرفضها، سنين عدداً ونحن نرفل في جلباب التخلف، لأننا تمسكنا بالقشور والمظاهر تاركين اللب والجوهر... نتحدث عن الوحدة ونحن ندوس بأقدامنا كل القيم، وكأنما الوحدة هي الهدف والغاية التي نضحي حتى بديننا من أجلها...

كلا...! إن الوحدة الحقيقية في الواقع هي السياج الذي يحافظ على قيم الرسالة وهوية الأمة.. الوحدة هي الحامي والحافظ لمكتسبات الحضارة الشامخة بنور الوحي المستنشقة لعبق النبوة.

أما الأمة التي ضلت الطريق ولم تحفظ الرسالة ولم تلتزم القيم الرسالية، عن أي وحدة تبحث..؟.

الاعتصام بحبل الله هو التمسك بالقرآن والنبي الأكرم صلى الله عليه وآله وعترته عمود الوحدة وأساسها... وإمامتهم نظام الملة.

ومع كل ذلك نحن نمد أيادينا بيضاء بمقدار ما يتطلبه واقعنا، وتفرضه

علينا التحديات التي تواجه الأمة الإسلامية قاطبة.. نتوحد من أجل، الرسالة، بل ونبذل الغالي والنفيس دون طمس لهويتنا ولا تنازل عن إيماننا بأن الحق كل الحق مع أهل البيت عليهم السلام ،وأن الشيعة هم الفرقة الناجية لالتزامها بكلام الرسول صلى الله عليه وآله وعملها بنهج الرسالة.. وتثبيت ذلك والدعوة إليه لا يتصادم إطلاقاً وهاجس الوحدة التي نأملها بعد أن تتبصر الأمة مواقع أقدامها وتلتف حول ولاية النبي وأهل بيته.

الحديث عن الشيعة والتشيع حديث طويل لانمله لأنه يدور مدار الحق، وما نسطره من كلمات لا يوفيه حقه، وما أكتبه المقصود منه تحريك العقول وهز الضمائر ليقوم الآخرون بدورهم في الانطلاق لاستيعاب المنهج وبسط الفكرة..

كان كتابي الأول رحلة شخصية عبر الدليل والبرهان، أنتجت انتماءً جديداً يعلن عن صحوة من غفوة.. جاء الكتاب بمقدار ما يستوعبه الهدف منه... وإن كان البعض الذين قرأوه، لم يستوعبوا الفكرة، فما كان منهم إلا التمسك بهامشيات لم تكن هي الغاية من الكتاب، فناقشني في جزئيات تحتاج إلى مواصلة الحوار في مضامينها بعد معرفة السياق العام للكتاب... والذي أرجو أن يكون هذا الذي بين يديك استمراراً وتوضيحاً وزيادة على

ما جاء في كتاب «بنور فاطمة اهتديت».

لقد كانت فاطمة عليها السلام دليلي إلى أهل البيت عليهم السلام ،ومع مأساتها عشت الآلام ورأيت مخازي الأمة.. وبنور ذريتها سأستلهم مقاصد المنهج الجديد (عندي)، وذلك بعد أن أخذ بيدي الدليل، واطمأن قلبي وقرّت عيني..

خطبة فاطمة عليها السلام يوم أن منعها الخليفتان حقها في الخمس وفدك، وغضبت عليهما غضباً جعلها توصي ألا يصليا عليها وأن تدفن ليلاً وسراً، هذه الخطبة هي في الواقع تلخيص لمقاصد الشريعة التي أتى بها أبوها صلى الله عليه وآله ـ لخصتها تلخيص العارف بدقائق أمورها، ثم تحدثت عن الفتنة التي وقعت في أحضانها الأمة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وآله...

سأستصحب هذه الخطبة ـ وخطبتها الأخرى التي ألقتها على مسامع نساء الأنصار، والتي ستجد نصها في نهاية هذا الكتاب ـ سأستصحبهما في بحوثي تأكيداً للحجة وزيادة في المعرفة..

ولا أريدك ـ أيها القارئ الفطن ـ أن تأخذ حديثي كمسلمات يجب التسليم بها ـ وإن كنت أرى ذلك ـ لكنها محاولة جديدة لإثارة العقول والتأكد والرجوع إلى محتوى العقائد التي ستقابل بها علام الغيوب الذي لا ولن تخفى عليه خافية... وأحسب أن ذلك كافٍ لكي نحتاط لديننا فنلقى

الله تعالى ونحن على بصيرة من أمرنا مؤمنين بما أمرنا به، وحتى لا نكون مصداقاً لقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُم بِالأخْسَرِينَ أَعْمَالاً (١٠٣) الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾.

وما توفيقي إلا بالله



الخرطوم ١٤٢٣ هـ

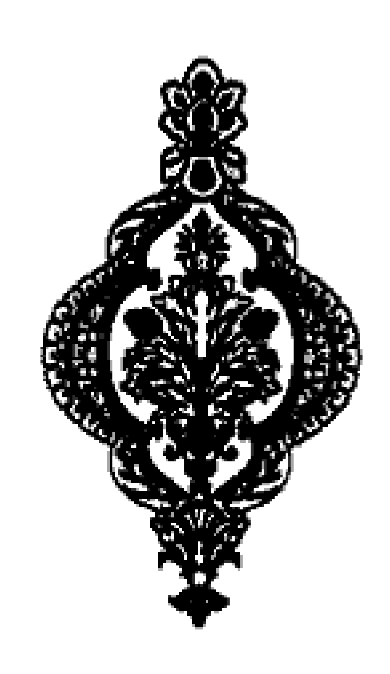



مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الفصل الأول



الإنسان ذلك العاقل




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الإنسان هدف الرسالات

في خضم مشاكل الإنسان وصراعه مع الحياة ينسى الإنسان نفسه (مكوناته) ويتحول إلى شيء أشبه بآلة، وبالتالي يتجرد من إنسانيته، لكنه بإدراك أو بلا إدراك يتحرك في دائرته وفقاً لتركيبته التي تميزه عن سائر المخلوقات، فلا تجد شخصين يختلفان في أن لإنسان بما هو إنسان متميز عن سائر مكونات الكون والحياة من حوله من حيوان أو جماد وما أشبه.

ترى ما هي ميزة الإنسان التي جعلته أفضل المخلوقات على الإطلاق؟! وهل بإمكانه التطور والتقدم إلى أكثر مماهو عليه الآن؟! وفي المقابل ماهي المقومات لبلوغه أسمى الدرجات وما هي العوامل التي قد تجرده عن إنسانيته ليس شكلاً ومظهراً إ نما موضوعاً وجوهراً؟!.

في مقدمة هٰذا الكتاب قلت إن مشكلة الإنسان عموماً، وفيما يختص بالمعتقد خصوصاً، مشكلة نفسية أكثر من كونها افتقاراً للدليل والبرهان

والحجة، وذلك ما سأثبته من بصائر القرآن وهدي السنة الشريفة.. والإنسان ككائن هو ذات الإنسان قبل آلاف السنين والآن وإلى يوم القيامة (أقصد مكوناته)، والناس من لدن آدم إلى يوم القيامة شرع سواء؛ كما يقول الإمام جعفر الصادق عليه السلام، إذاً دعنا نبدأ البحث عن أنفسنا، وعند وجدانها سننطلق في آفاق المعرفة بثقة واقتدار.. والمقصد الأساسي من هذا المبحث الوصول إلى الطريقة المثلى لإعمال الفكر ومجانبة الوقوع في الخطأ وبالتالي التسليم للحقائق، وسيكون منطقنا آيات الذكر الحكيم وكلمات السنة المقدسة، مستندين على صفاء الوجدان وخلوص النية والتوجه إلى الله عزّ وجلّ لاستمداد العون والتوفيق منه.

كيف ينظر القرآن للإنسان؟

يقول الله تعالى، ﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً﴾ الإسراء/٧٠.

من خلال هذه الآية الكريمة الواضحة الدلالة نرى أن الله عزّ وجلّ كرم بني آدم (الإنسان)، كما أنه جل شأنه فضلهم على كثير من المخلوقات الأخرى تفضيلاً، بل أكثر من ذلك إذ إنه تعالى بعد أن خلق آدم وسواه

ونفخ فيه من روحه، أمر الملائكة بالسجود له بعد أن جعله خليفة في الأرض، يقول تعالى، في سورة البقرة، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأرض خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾...... إلى قوله تعالى، ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ الآيات من ٣٠ إلى ٣٤، في هذه الآيات يبين الله عزّ وجلّ عظمة آدم وفلسفة خلقه، ولماذا هو المميز عن سائر المخلوقات حتى أمر الملائكة بالسجود له، ومن أبى كإبليس كان من الكافرين وجزاؤه اللعنة والخروج من رحمة الله عزّ وجل، وكثيرة هي الآيات التي تتحدث عن الإنسان وخلقه وميزته.. هنا يقفز إلى أذهاننا السؤال لماذا الإنسان دون سائر المخلوقات؟!.

هذا الإكرام والتفضيل الذي يحظى به الإنسان بما هو دون التفات إلى عنصر أو قومية أو لون أو فقر أو غنى.. لابد أن يكون له سبب تكويني، أي شيء إضافي موهوب من قبل الله عزّ وجلّ لهذا الكائن الحي دون سواه من الموجودات.. جعل للإنسان كرامةً وهيمنة، ولا أعتقد أن هناك من يختلف معي أن هذا الشيء هو العقل، هكذا يعلمنا القرآن وما جاء من

السنة، بل يحكم بذلك وجداننا، إذ لو نظرنا إلى ما حولنا من مخلوقات نتعاطى معها في هذه الحياة «والمقصود من المخلوقات كل هذا الكون المخلوق بما فيه من نبات وحيوان وجماد.. الخ»، نجد أن ميزتنا الأساسية والجوهرية هي هذا العقل، الذي تتبعه الإرادة والحرية والقدرة على الاختيار وتمييز الأشياء، أما سائر ما نملكه من حياة وغرائز وبناء جسماني «أقصد المكونات من أذنين وعينين وجهاز هضمي وما أشبه» توجد في بعض المخلوقات، بل قد تفوقنا الحيوانات في بعض الأشياء كالسمع عند الكلب والنظر عند الصقر وهكذا...

ومن الواضح أن هذه الجوهرة الثمينة الموهوبة من الله عزّ وجلّ هي التي تعطي للإنسان معنى الإنسانية.. لذلك يطلق القرآن على العقل كلمة (لب وألباب) ولب الشيء هو محتواه ومضمونه، والذي لا عقل له (أو لا يستخدمه) هو بلا محتوى، بالتالي يكون مفرغاً من الإنسانية الواقعية والحقيقية، يقول الله تعالى، ﴿وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ البقرة /١٧٩، ويقول ﴿يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾ آل عمران/ ٧، ويقول سبحانه، ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمَاوَاتِ وَالأَرض وَاخْتِلاَفِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ لآيَاتٍ لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ آل

عمران/ ١٩٠، وهكذا في ١٦ مورداً من القرآن الكريم ترد هذه الكلمات لتبين حقيقة الإنسانية وفق منهج الذكر الحكيم.

أما من يفتقد نعمة العقل (وجداناً وعملاً بها) فهو يشبه الأنعام بل أسوأ منها، لأنه افتقد ما يميزه عنها، وهو أضل لأنه يمتلك القدرة على الاستفادة من هذه الطاقة الجبارة المودعة لديه (العقل) لكنه لا يفعل، بينما الأنعام لا حول لها ولا قوة ولم تنل هذا الشرف العظيم.. يقول تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيراً مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لاَ يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لاَ يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لاَ يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالأنعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ آل عمران/ ١٧٩، ويقول سبحانه ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلاَّ كَالأنعامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلاً﴾ الفرقان/ ٤٤، ويقول جل شأنه ﴿... وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الأنعامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَهُمْ﴾ محمد/ ١٢.

ولقد لخص الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام هذه الفكرة بصورة واضحة مفسراً لهذه الآيات، يقول الإمام عندما سئل عن فضل الإنسان: (إن الله خلق الملائكة بعقل ولم يخلق فيهم الشهوة، وخلق الأنعام بشهوة ولم يخلق فيها العقل، وخلق في الإنسان العقل والشهوة، فمن غلب (بالنسبة

للإنسان) عقله شهوته كان أفضل من الملائكة، ومن غلبت شهوته عقله فهو كالأنعام بل أضل).

وما أعتقده أن كل الناس يفهمون هذه الحقيقة نظرياً، ولكن أكثرهم في الواقع العملي لا يعقلون...

إذاً دعنا نبدأ بتعريف العقل ومكانته وآثاره ومدى أهميته للإنسان... ولكن قبل ذلك لنذكّر ببعض الآيات التي تمتدح الذين يعقلون، وتذم الذين لا يعقلون (لا يستفيدون من نور العقل) لنزداد بصيرة في أهمية دور العقل بالنسبة لاكتمال إنسانية الإنسان وحضور لبه وجوهره [1].

يقول تعالى، ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ البقرة/ ٢٤٢، ويقول ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ الأنبياء/ ٦٧، ويقول ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾

---

(١) لا يخفى على المطلع أن القضايا التي نناقشها في هذا الفصل مثل (حقيقة العقل والعلم والمعرفة وتجنب الخطأ) مما ناقشه كثير من الفلاسفة والمفكرين، إلا أننا لا نرى لزاماً علينا التعرض لأفكارهم لجملة من الأسباب منها:

أ ـ الغرض من هذا البحث الوجيز إلفات النظر إلى بعض الحقائق دون الخوض في جدل يخرجنا من دائرة الهدف الرئيسي.

ب ـ أن الوحي (القرآن والسنه) كفيانا مؤنة إيضاح هذه الحقائق، وكما قلنا فإن الغرض ليس المقارنه إنما بيان منهج الوحي في خصوص المواضيع مدار بحثنا.

الملك/١٠، ويقول ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُواْ كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لاَ يَسْمَعُ إِلاَّ دُعَآءً وَنِدَآءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾ البقرة/ ١٧١.

وهكذا وردت كلمة العقل ٤٩ مرة في القرآن بمختلف التصريفات، أضف إليها كلمة (لب ـ ألباب) التي وردت ١٦ مرة، مع تأكيد القرآن الكريم على ضرورة اتباع العلم (وهو من العقل كما سنبين) في كثير من الآيات.. كل ذلك يؤكد حقيقة أن الله ما اختار الإنسان لبعث الرسل إليه وجعله خليفة للأرض وتسخير الكون وخلقه له إلا لأنه يعقل ويعلم.. لذلك لم ينزل القرآن على الجبال والأنهار والأنعام... التي لا تعقل وليس لها القدرة على الاختيار، ولا تملك الإرادة التي يوجهها العقل.. إنما هي مجبولة على عبادة الله والخضوع المطلق لإرادته، فلا تحتاج إلى الأمر والنهي وبيان المنهج، بعكس الإنسان الذي وإن كان يملك العقل وسائر المقومات إلا أنه يملك أيضاً الشهوات وحب الذات والتي سنتحدث حولها إن شاء الله.. لذلك احتاج للمنهج الذي يجب أن يسير عليه لفلاحه في الدنيا والآخرة.. والحقائق سالفة الذكر هي ملخص الآيات التالية:

(ج) الحديث موجه للذين يشتركون معنا في حجية الكتاب والسنة.

ـ ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ يوسف/ ٢.

ـ ﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ إِلَيْكُمْ كِتَاباً فِيهِ ذِكْرُكُمْ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ الأنبياء/ ٦٧.

ـ ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآناً عَرَبِيّاً لَّعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ الزخرف/ ٣.

ويقول تعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُواْ آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ ص٢٩.

ويقول سبحانه: ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بَنِي إِسْرَائِيلَ الْكِتَابَ (٥٣) هُدىً وَذِكْرَى لأُوْلِي الأَلْبَابِ﴾ غافر/ ٥٣ ـ ٥٤.

لقد نزلت رسالات السماء للبشر خاصة لكي يعقلوا عن الله عزّ وجلّ، كما القرآن المبارك الذي ما نزل إلا ليدبروا آياته، ومن ثم يرون الحقائق ويؤمنون، ولا يكون ذلك إلا عند أولي الألباب والعقول.

ولزيادة بيان واقع الإنسان فَلْنَتْلُ الآيات التالية معاً:

يقول تعالى في سورة الإنسان: ﴿هَلْ أَتَى عَلَى الإنسان حِينٌ مِّنَ الدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْئاً مَّذْكُوراً (١) إِنَّا خَلَقْنَا الإنسان مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً (٢) إِنا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ الإنسان/ ١ـ ٣.

يستطيع الإنسان كما هو واضح أن يكون شكوراً، كما أن له القدرة في أن يكون كفوراً، وذلك يتبع إرادته تبعاً لميزة القدرة على الاختيار، والحرية

في الترجيح، فهذه تذكرة فمن شاء (أراد) اتخذ إلى ربه سبيلاً..

لقد خلق الله الإنسان في أحسن تقويم [١] وعلمه ما لم يعلم [٢] وعلمه البيان[٣] وأمره ونهاه وأنزل إليه الكتب، لأنه يملك كل المقومات المؤهلة لاستقبال ذلك، عكس غيره من المخلوقات، والمطلوب منه استثمار ذلك وتحريك طاقاته (التعقل، الاختيار، الحرية) في سبيل الرقي بنفسه، والسمو نحو التكامل والتفاعل مع الحقائق، والانسجام مع السنن الإلهية والتمسك بالقيم والمبادىء هكذا هو الإنسان الذي يريده الله عزّ وجلّ.

ما هو العقل؟!

يقولون: توضيح الواضحات من أشكل المشكلات، إذا صح هذا القول فأبرز مصاديق ذلك محاولة تعريف العقل لأنه من أظهر الأمور، بل نحن نرتكز عليه في جل حياتنا لكننا نغفل عنه كما نغفل عن الشمس ولا نتنبه لها إلا بعد غيابها.. كذلك العقل نحن نتعامل مع الأشياء بفضل نوره وكاشفيته للحقائق، وعرفوه من ناحية اللغة (بالنظر إلى آثاره)، (وأصل الكلمة مشتقة من عقله بمعنى ربط وثاقه ليحفظه عن الإفلات، وبهذه

(١) انظر سورة التين: الآية ٤.

(٢) انظر سورة العلق: الآية ٥.

(٣) انظر سورة الرحمن: الآية ٣.

المناسبة يطلق العرب العقل على ما يحفظ الإنسان من موجبات الردى، ويقابل العقل عادة بالجهل والجنون، ويقصد بالأول عدم القيام بما ينبغي القيام به لعدم معرفته أو لتغلب الشهوة... ويقصد بالجنون وجود خلل في أعصاب الفرد مما يدعه غير قادر على العمل بما ينبغي عليه، وفي بعض الأحيان نستعمل لفظة الإرادة للدلالة على تلك الطاقة التي تجعلنا نقوم بما ينبغي لنا أن نقوم به، ونطلق على كشف ما ينبغي لنا أن نقوم به بالمعرفة والعلم) [1].

انظر يميناً وشمالاً ونقب واستنطق وجدانك، ستجد أنك عندما تريد تعريف العقل لن تتجاوز الحديث عن آثاره، لأننا نعرف الأشياء جميعاً بعقولنا والتي لو لم تكن سليمة لما عرفنا شيئاً، فلابد لنا حتى نعرف العقل أن نلجأ لذات العقل، فمن غير المعقول أن نعرف كل الأشياء بالعقل ولا نعرفه بنفسه، إذ ليس بعد العقل إلا الجهل، وبكلمة: العقل هو ذلك النور الذي به تكشف الأشياء، وبما أنه نور بهذه الصفة إذاً هو ظاهر بذاته مظهر لغيره، ولا شيء فوق العقل يمكن أن نعرف به العقل، اللّهم إلا الجهل وهذا مما لا يكون.. والسبيل إلى وجدان حقيقة العقل لا يكون إلا بالتذكرة

(١) المنطق الإسلامي: آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي /ص١٦٠.

والتنبيه وبيان آثاره بأن:

١.نلاحظ أنفسنا في حالة افتقادنا له، هل نختلف عما إذا كنا واجديه.؟ ففي حالة الغضب والشهوة العارمة، في الطفولة والشيخوخة، في النوم والغفلة، هل تختلف حالنا في هذه الحالات عن الحالات السوية ولماذا؟.

إن المزيد من التنبيه الذاتي للفرق بين الحالات يعطينا البصيرة بعقولنا ويجعلها تكشف ذاتها أكثر فأكثر.

٢.الالتفات إلى أن الأشياء لا تعرف بذاتها، إنما هي بحاجة إلى وسيلة تكشفها لنا وهذه الوسيلة هي العقول.

«إن كل معلومة من معلوماتنا وكل فكرة من أفكارنا، آية من آيات العقل وهدىً يدلنا عليه، إذ إننا لم نجدها إلا بالعقل بذلك النور الذي لم يكن فينا حين كنا صغاراً وحين نكون مخرفين من الكبر وحين يذهب الغضب بحلومنا.. و... وبالتالي حين نجهل شيئاً بأي سبب من الأسباب.

إلا أن مجرد العلم بالأشياء لا يكفي لكي نعرف عقولنا، إذ إننا حين نعرف الأشياء لانهتم بالوسيلة التي عرفتنا عليها، إنما تستقطب الأشياء كل اهتمامنا كمثل الذي يبصر الأشياء من حوله دون أن ينتبه إلى أن عينه هي التي كشفتها له وأنه بدونها لم يستطع أن يراها، إنما يجب أن نلتفت إلى

أننا دون نور العقل لم يكن ممكناً لنا معرفة الأشياء، وهناك تصبح كل فكرة معلومة وكل حقيقة مكشوفة، دليلاً جديداً على عقولنا،ليس هٰذا فقط وإنما أيضاً إثارة للعقل من أجل كشف ذاته والتنبه بحقيقته حتى يتميز أكثر فأكثر من هواجس الذات، ونتائج الخيال، هكذا تكون المعارف وسيلة للحصول على المزيد منها ولكن بطريق غير مباشر، إذ المعارف تهدينا إلى العقل، إذا لاحظناها على أساس أنه لم تكن معرفتنا بها ممكنة من دون العقل، وبتركيز هذه الملاحظة ينفتح العقل، ويكتشف ذاته ويتميز عن الهواجس الغريبة، وبذلك يهتدي الإنسان إلى مزيد من المعارف، ومن هنا يتجه المنهج الإسلامي إلى العقل ويسعى نحو ترسيخ فهمه لكي يجعل منه نقطة انطلاق لفهم الحياة»[1].

ولم أجد ترسيخاً لهذه المعاني وتوضيحاً لهذه الحقائق وأقربها إلى الوجدان إلا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام على لسان النبي الأكرم صلى الله عليه وآله والأئمة من أهل بيته، تبياناً وتفسيراً لما أنزل من القرآن، وإليك بعضاً من أحاديثهم عليهم السلام،

١. عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال، «إن العقل عقال من الجهل، والنفس مثل

(١) المصدر نفسه: ص١٦٦.

أخبث الدواب فإن لم تعقل حارت، فالعقل عقال من الجهل وإن الله خلق العقل فقال له أقبل فأقبل، وقال له أدبر فأدبر، فقال الله تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي ما خلقت خلقاً أعظم منك ولا أطوع منك، بك أبدأ وبك أعيد، لك الثواب وعليك العقاب.»[1].

٢. قال رسول الله ﷺ: «ما قسم الله للعباد شيئاً أفضل من العقل... ولابعث الله نبياً ولا رسولاً حتى يستكمل العقل ويكون عقله أفضل من جميع عقول أمته، وما يضمر النبي ﷺ أفضل من اجتهاد المجتهدين، وما أدى العبد فرائض الله حتى عقل عنه، ولابلغ جميع العابدين من فضل عبادتهم ما بلغ العاقل، والعقلاء هم أولوا الألباب الذين قال الله تعالى: ﴿وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُواْ الأَلْبَابِ﴾[2].

٣. عن الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام قال: «يا هشام، إن لله على الناس حجتين: حجة ظاهرة وحجة باطنة، وأما الحجة الظاهرة فالرسل والأنبياء والأئمة عليهم السلام وأما الباطنة فالعقول، ياهشام كيف يزكو عند الله عملك، وأنت قد شغلت قلبك عن أمر ربك وأطعت هواك على غلبة

(١) بحار الأنوار ص ١١٧ . ١١٩ كتاب العقل.

(٢) الكافي ج١ ص١٠.

عقلك»[(١)].

٤. عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: «سئل: ما العقل؟ قال: ما عبد به الرحمٰن واكتسب به الجنان»[(٢)].

٥. عن الإمام الصادق جعفر بن محمد عليه السلام: اعرفوا العقل وجنده، والجهل وجنده تهتدوا، وإنما يدرك الحق بمعرفة العقل وجنده.. وكان ممن أعطي العقل من الخمسة والسبعين جنداً الخير وهو وزير العقل، وجعل ضده الشر، وهو وزير الجهل، والإيمان وضده الكفر...[(٣)].

٦. عن الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام قال: (يا هشام نصب الحق لطاعة الله ولا نجاة إلا بالطاعة، والطاعة بالعلم، والعلم بالتعلم، والتعلم بالعقل يعتقد، ولا علم إلا من عالم رباني، ومعرفة العالم بالعقل)[(٤)].

٧. في حديث عن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: (..... فإذا بلغ المولود حد الرجال أوحد النساء، فيقع في قلب هٰذا الإنسان نور فيفهم الفريضة والسنة والجيد والرديء. ألا ومثل العقل في القلب كمثل السراج في البيت)[(٥)].

---

(١) المصدر نفسه: ص٦.

(٢) المصدر نفسه: ص٨.

(٣) بحار الأنوار: كتاب العقل ص١١٠.

(٤) الكافي: ج١ ص١٣.

(٥) علل الشرائع ص٩٨.

٨. عن الإمام الصادق عليه السلام، (أكمل الناس عقلاً أحسنهم خلقاً) [١] .

٩. عن الإمام الصادق عليه السلام، (دعامة الإنسان العقل، والعقل منه الفطنة والفهم والحفظ والعلم، وبالعقل يكمّل، وهو دليله ومبصره ومفتاح أمره، فإذا كان تأييد عقله من النور كان عالماً حافظاً ذاكراً، فهماً فطناً فعلم بذلك كيف ولم وحيث، وعرف من نصحه ومن غشه، فإذا عرف ذلك عرف مجراه وموصوله ومفصوله، وأخلص الوحدانية لله والإقرار بالطاعة، فإذا فعل ذلك كان مستدركاً لما فات وواردا على ما هو آت، يعرف ما هو فيه ولأي شيء هو ههنا، ومن أين يأتيه وإلى ما هو صائر، وذلك كله من تأييد العقل.[٢].

١٠. عن الإمام الصادق عليه السلام قال، (العقل دليل المؤمن) [٣]

١١. عن الإمام الكاظم عليه السلام قال، يا هشام، ما بعث الله أنبياءه ورسله إلى عباده إلا ليعقلوا عن الله، فأحسنهم استجابة أحسنهم معرفة، وأعلمهم بأمر الله أحسنهم عقلاً، وأكملهم عقلاً أرفعهم درجة في الدنيا والآخرة)[٤].

---

(١) الكافي ج١ ص١٨.

(٢) المصدر نفسه: ص١٩.

(٣) المصدر نفسه: ص٢٠.

(٤) المصدر ص١٣.

هكذا تأخذنا الأحاديث والروايات لنتعرف عن كثب على العقل ونهتدي إلى آثاره ... مذكرة بحقائقه التي يمكن تلخيصها في الآتي:

- إن جوهر الإنسان ورمز كرامته وعنوان أفضليته على سائر المخلوقات هو العقل.

- هٰذا العقل يصعب تعريفه تعريفاً يحيط به، لأنه هو بذاته أداة المعرفة.. فهو نور ظاهر بذاته مظهر لغيره.

- وهو حجة إلٰهية معصومة بالذات ممتنع خطؤه، وهوقوام حجية كل حجة، وهو ملاك التكليف والثواب والعقاب، وبه يجب الإيمان وما يترتب عليه وتصديق الأنبياء والإذعان لهم، وبه يميز الحق من الباطل والشر من الخير والرشد من الغي، وبه يعرف الحسن والقبيح والجيد من الرديء ومكارم الأخلاق ومحاسنها ومساوئ الأعمال ورذائلها [1].. ولو أسلس الإنسان قيادة لعقله لأحسن الصنع في كل شيء نظرياً وعملياً.

ولوجود هٰذا العقل كان الإنسان محط أوامر الله ونواهيه وإرسال الرسل

---

(١) ذلك نستظهره بعد التدبر في الروايات سالفة الذكر، ونحن بوجداننا نحكم بذلك، إذ إننا لا نرى شخصاً فعل فعلاً حكيماً واتخذ موقفاً استحسناه إلا ونقول هذا إنسان عاقل والعكس، مما يعني أن كل فعل حسن يكون موافقاً للقيم فهو من العقل: وهذه هي العصمة، كما يظهر أن عصمة الأنبياء والرسل تكمن في اكتمال نور العقل لديهم كما في الحديث الثاني.

والأنبياء وإقامة الحجة، وسيأتينا الحديث عن علاقة الوحي بهٰذا العقل.

ويبقى السؤال،

ولكن لماذا يضل الإنسان ويخطئ وهو يملك هذه الجوهرة الثمينة التي تقوده دوماً إلى الحق وتهديه إلى الحقائق؟! الإجابة على هٰذا السؤال نحتاج إلى مجلدات ودراسات لا تستوعبها هذه المساحة، ولكن بمقدار ما يتطلبه هٰذا المبحث سنتعرض للإجابة على هٰذا السؤال الهام الذي هو محط اهتمامنا كما ذكرنا قبل الولوج إلى عالم المعتقدات.

وهنا يجب أن نشير إلى العلاقة بين العقل والعلم لتكتمل الصورة الأولية لدينا. وحقيقة يصعب التفكيك بين العقل والعلم.. لأن العلم ليس إلا انكشاف المعلوم وظهوره، والعقل يضيء الأشياء، والأشياء تضاء به، ولحظة الإضاءة تسمى علماً، إذ ليست هناك ثنائية في الحقيقة بين العقل والعلم، إنما هو نور واحد إذا تحدثنا عنه لحظة كشفه عن الأشياء سميناه علماً، وإذا تحدثنا عنه كشيء موجود وثابت أو حين العقل وفقاً للعلم (الحق) سميناه عقلاً [1]. وتطرقنا لهٰذا الموضوع لأننا قد نورد لاحقاً بكثرة كلمة العلم، وهو ما قصد أعلاه حينما نبين مشكلة الإنسان وسبب انحرافه في الفكر والسلوك.

---

(١) ولعل إلى ذلك تشير الآية الكريمة ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ العنكبوت/٤٣.

أين تكمن المشكلة؟

لا بد لنا من الرجوع إلى واقع الإنسان لمعرفة المشكلة..

إذ إن الإنسان كما أن له عقلاً يدفعه نحو الخير، له قوة أخرى تساهم بصورة مباشرة في صدوده عن الحق والفضيلة، يقول تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا (٧) فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ الشمس/ ٧.

ويقول جل شأنه ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ﴾ ق/١٦.

ويقول ﴿أَفَكُلَّمَا جَاءكُمْ رَسُولٌ بِمَا لاَ تَهْوَى أَنفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقاً كَذَّبْتُمْ وَفَرِيقاً تَقْتُلُونَ﴾ البقرة/٨٧.

ويقول ﴿تَرَى كَثِيراً مِّنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُواْ لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنفُسُهُمْ أَن سَخِطَ اللّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ هُمْ خَالِدُونَ﴾ المائدة/ ٨٠.

ويقول سبحانه ﴿وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِ وَنَهَى النَّفْسَ عَنِ الْهَوَى (٤٠) فَإِنَّ الْجَنَّةَ هِيَ الْمَأْوَى﴾ النازعات/ ٤٠.

ويقول في سورة يوسف ﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ﴾ آية/٥٣.

من خلال هذه الآيات نرى أن في مقابل العقل قوة أخرى تنازعه القيادة

وهي النفس الأمارة بالسوء.. وهذه النفس إذا نهيت عن الهوى كانت الجنة هي المأوى، وذكرنا سابقاً أن العقل ما عبد به الرحمٰن واكتسبت به الجنان، إذاً طريق الجنة (الحق، القيم، الخلق، الاستقامة، الابتعاد عن الخطأ) يكمن في نهي النفس عن الهوى، وعندها يتوهج نور العقل، وكلما ازداد التوهج كلما خفت بريق الهوى وانزاحت ظلمات الجهل.. وعندما نركن إلى النفس الأمارة بالسوء ونسير على هواها تكبر عندنا مساحة الجهل ويخفت نور العقل فنرى الباطل حقاً، وكل ما لا تستهويه أنفسنا ـ وإن كان حقاً ـ نراه باطلاً..

بين العقل (العلم) والهوى

«العلم هو إحاطة الفكر البشري بالحقائق، بحيث تظهر له وتنكشف أمامه بوضوح وتمييز، وهو قد يوافق الشهوات وقد يخالفها، وبتعبير أوضح قد يعي الإنسان ما يحبه، كعلمه بربح تجارته، وقد يعي ما يكرهه كعلمه بكسادها، وسواء خالف أو وافق العلم الشهوات فإنه مختلف عنها في مركز إشعاعها، إذ العلم من العقل، والشهوات من القلب، وتتأثر الشهوات بالظروف المتطورة دون العلم» [1].

(١) المنطق الإسلامي آية الله العظمى السيد محمد تقي المدرسي ص١٨٥.

وكما أن للإنسان عقلاً يهبه العلم ويهديه إلى الصواب، هناك جانب آخر في الإنسان وهو سبب جهله ومصائبه ألا وهو الهوى والشهوات، والحب والرغبات.. وكلا الجانبين(العقل والهوى) يوحيان للإنسان بالفكرة، وتفترق الفكرة الناتجة عن نور العقل المكشوفة به (المعرفة) عن الوهم وخداع الذات الذي تمارسه النفس بأهوائها، وأمثلة الافتراق كثيرة منها،

أ. أننا نحب الخلود ونهواه وتركن النفس لهٰذا الوهم، بينما نحن نعلم أننا غير مخلدين...

ب. ونحب أن تكون كل معارفنا صحيحة وعقائدنا موافقة للحق، بيد أننا نواجه في كثير من الأوقات حقائق تكرهنا على إعادة النظر في معارفنا وعقائدنا والاعتراف بخطئها كلياً أو جزئياً.

وهكذا نفرق بين العقل (العلم) والهوى (الحب)، وإذا أردنا أن نفصل أكثر في بيان الفكرة، دعنا نخوض بصورة أعمق في معنى الهوى باعتباره المانع الحقيقي لتسرب الحق إلى أفئدة البشر، إذ أننا ما وجدنا الهوى في بصائر الذكر الحكيم إلا مذموماً، وما اتبعه أحد إلا وأبعده عن الحق وأرداه في جهنم وبئس المصير.

الهوى يعني الحب، وهوى النفس يعني حب الذات، وأهواء النفس هي: شهواتها، طبائعها، غرائزها، ميولها الفطرية والتربوية، .. والإسلام اعتبر الحق (العقل/ العلم) منطلقاً والهوى منطلقاً آخر، وأراد للإنسان أن يتبع الحق وينبذ الهوى [1]، وهكذا اعتبر الإسلام الهوى سبباً لتكذيب الأنبياء ﴿أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم﴾ البقرة/ ٨٧.

واتباع الظن الذي لا يعدو أن يكون أهواءً ـ للنفس ـ هو الذي أردى البشر فجعلهم كفاراً ومشركين ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ﴾ ٢٣/ النجم/ ٢٣.

والعدل كما الحق لا يمكن تطبيقه إلا بمخالفة الهوى، ﴿فَلاَ تَتَّبِعُواْ الْهَوَى أَن تَعْدِلُواْ﴾ النساء/ ١٣٥.

وحين بعث الله نبيه داود وجعله خليفة على الناس، أمره بمخالفة الهوى لأنها طريق العمل بالحق ﴿وَلاَ تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾ ص/٢٦.

ورسالة الرسول ﷺ بنيت على الوحي [2] لا على الهوى، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَى (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ النجم/ ٣ ـ ٤.

ونهى الله عن الطاعة لمن يتبع هواه لأنه يتبع الباطل، ولأنه قد غفل وابتعد عن عقله ﴿وَلاَ تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ

(١) قد يلتقي الهوى مع العلم والحق ولكن في الأكثر يفترقان.

(٢) في مناسبة أخرى إن شاء الله سنبين العلاقة بين العقل والوحي.

﴿فُرُطاً﴾ الكهف/ ٢٨.

والذي يتبع هواه فإنما هو مشرك إذ أنه يعبد هواه، ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَـهَهُ هَوَاهُ أَفَأَنتَ تَكُونُ عَلَيْهِ وَكِيلاً﴾ الفرقان/ ٤٣. وأهواء الناس ضلالات يجب مجانبتها ﴿قُل لاَّ أَتَّبِعُ أَهْوَآءَكُمْ قَدْ ضَلَلْتُ إِذاً وَمَآ أَنَاْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ﴾الأنعام/ ٥٦، والهوى يخالف العلم، ولا يمكن أن يجمع الإنسان بين اتباع الهوى واتباع العلم، ﴿لَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللّهِ مِن وَلِيٍّ وَلاَ نَصِيرٍ﴾البقرة/ ١٢٠، ﴿وَلاَ تَتَّبِعْ أَهْوَآءَهُمْ عَمَّا جَآءَكَ مِنَ الْحَقِّ﴾ المائدة/ ٤٨، والذين لم يستجيبوا للرسول فإنما كان بسبب واحد فقط هو اتباع اهوائهم إذ إنه السبب الوحيد لمخالفة العلم، ﴿فَإِن لَّمْ يَسْتَجِيبُواْ لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَآءَهُمْ﴾ القصص/٥٠، أما ضلالة الناس كثير منهم فإنما هي بسبب اتباع الهوى وعدم العلم ﴿وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الأنعام/١١٩.

وهكذا نرى بصائر الوحي لتؤكد أن ا تباع الهوى هو الذي يجعل الإنسان بعيداً عن الحق، لا يخضع لأمر العقل وحقائق العلم. واتباع الهوى يعني ما يحبه الإنسان ويشتهيه، ولأن شهوات الإنسان تختلف، فإن موارد اتباع الهوى تختلف هي الأخرى.. والسؤال ما هي شهوات الإنسان وبالتالي ما هي أهواؤه؟ شهوة الخلود، شهوة الراحة، شهوة الأمن والسلامة، وأخيراً شهوة الملك والسيطرة، وهي جميعاً شهوة واحدة هي (شهوة الحياة)، وهي أعمق شهوة في النفس البشرية، لأنها صور لهوى

النفس في أوضح وأصدق حالاتها. شهوة الطعام والمسكن واللباس، شهوة الأولاد وحس التكيف مع البيئة وحس التكيف مع المجتمع والاستسلام لضغوط السلطة، كل هذه صور أخرى وإن كانت باهتة عن شهوة الحياة، ونرى ذلك جلياً عندما يخضع الإنسان للمجتمع أو للبيئة أو للسلطة تخضع كل مناحي حياته وفي طليعتها فكره، ولذلك فإنه يدفع بفكره باتجاه التوافق مع المجتمع والاستسلام لتوجيهاته وكذلك باتجاه الخضوع للسلطة والآباء... الخ.

والقرآن عندما يتحدث عن هوى النفس إنما يعني حب الذات، وحينما يقول أهواء النفس يعني شهواتها، فالهوى هو حب الذات وحب أي شيء يخدم الذات مباشرة أو غير مباشرة، وبتأمل بسيط ندرك ذلك، إذ إن حب الحياة ـ الراحة ـ الأكل ـ النساء ـ المال ـ السلطة... إنما يحبها الإنسان ويبحث بشتى الطرق لإشباعها لأنها ترتبط بالذات، والجامع بينها هو حب الذات بتعبير أفضل (هوى النفس) وهو وراء كل أسباب الخطأ في الإنسان، ابتداء من الأسباب النفسية والتقاليد وانتهاءً بالأسباب الطبيعية مروراً بالأسباب الاجتماعية والاقتصادية.

والإسلام حينما أراد للمؤمن أن يسير في الصراط المستقيم، وجه الإنسان إلى السبب الرئيسي لكل الأخطاء على مستوى الفكر والممارسة،

وأشار إلى (هوى النفس) وفضح علاقة كل الأفكار الخاطئة بهٰذا السبب... فتارة يشير القرآن مباشرة إلى هوى النفس، وأخرى إلى النتيجة الحتمية لاتباع هوى النفس، مثل اتباع الآباء والاجداد، الخوف من السلطات، الركون إلى الظن الذي لا يغني عن الحق شيئاً.. ولكن ومع وجود هذه المشكلة الكبيرة في داخل الإنسان فهو غير مضطر للسير وفقها، إن حرية الإنسان تبقى معه في كل الأحوال مهما كانت الظروف، وبما أن الحرية موجودة فإن قدرته على معرفة الحق موجودة هي الأخرى. فإن الذي يتبع هواه ويكيّف نفسه مع مجتمعه ثقافياً وعقائدياً يستطيع أن يقف لحظة ويفكر. لماذا أنا أعتقد بهذه الأفكار. ألأنها صحيحة؟ أم لأنها أفكار مجتمعي؟ هكذا ورثتها، بالطبع إنه يخادع نفسه في البداية خشية التعرض لعقوبة المجتمع، ولكن إذا استمر في التحدي وفكر جيداً استطاع أن يفهم الحقيقة، حيث أنه راح يقارن بين هذه الأفكار وبين أمثالها من الأفكار، كيف أنه يعتقد بتلك ويرفض هذه؟! مع أننا جميعاً نشترك في القوة الإقناعية؟ إن العادة والاسترسال والخوف من التغيير والسلبية أمام ضغوط الشهوات هي التي تمنع الناس من إعادة النظر في كيانها الفكري والثقافي (العقائدي) وتقييمه من جديد وبالتالي رفض كل باطل فيه.

وحتى نحيط خبراً بإفرازات حب الذات، لا بد من العلم أن حب الذات يظهر في رجاء الخير لها والخشية عليها من الشر، لأن حب الذات (هوى النفس) منطلَق كل الغرائز التي يهمها في المقام الأول إشباع شهوات الذات، فمثلاً اتباع السلطان قد يكون خوفاً من عقابه، بمعنى أن عدم الاتباع يقضي عليه بالحرمان من إشباع غرائزه، واتباعه يوفر له ما يخشى أن يحرم منه، فرجاء البلوغ للشهوات لا يختلف كثيراً عن خوف حرمانها، إنهما نابعان من مصدر واحد وهو حب الشهوات، وما من دافع نفسي يكمن وراء عمل بشري، إلا ويعود بعد حذف التفاصيل واستخلاص الجوهر من المظاهر - إلى الخوف والرجاء... الخوف من حرمانه مما يملك، والرجاء في حصوله على ما لا يملك، المرء يتبع جماعته خوف تفرده لدى انفصاله عنها، وبالتالي حرمانه من منافع الجماعة، ورجاء المزيد من ذلك [1]

الرجل يتبع نهج الصراع الطبقي ضد طبقة أخرى خوفاً من حرمانه من

(١) في الواقع هذه الحالة صادفتني كثيراً أثناء نقاشي ومحاوراتي مع الآخرين، إذ إن هنالك نماذج تخاف فقط من المحيط الذي تدور في فلكه، وتكمن مشكلته في انه سمع من الآخرين ما يطعن فينا، أو سمع آراء سلبية عموماً فيخشى على نفسه أن يكون محط سهام القوم.. يا للسذاجة والغفلة!!

أكله وأمنه، ورجاء في الحصول على المزيد من إشباع الجوع وتوفير الأمن.

والإنسان يسعى للرئاسة لأنه يجدها أنسب الطرق لحماية ماعنده والحصول على ما لا يملك من الغرائز.

إنه (حب الذات) بقطبيه الخوف والرجاء..

أما علاقة (حب الذات) هوى النفس بجذور الخطأ في التفكير، وبالتالي سلبيتها في التأثير على الإنسان والتشويش عليه فنذكر أمثلة لها في الآتي:

✦ يتعصب البشر لأفكاره بدافع حب الذات، ويجادل عنها ويستكبر دون معرفة ما يقابلها ودون الانفتاح على ماسواها.. ويتعصب أيضاً لكل فكرة تكسبه نفعاً، أو تدفع عنه ضراً، ويتكون بها حسب الظروف، وينغلق عليها دون غيرها حتى ليعمى بصره ويغتر بجهله، ولا يذل نفسه (حسب ظنه) بالسؤال أو البحث عن الحقيقة أو التسليم لمن ينادي بها، لمجرد الظن بأن في ذلك منقصة لذاته التي يحبها، وإلى هذه الغريزة ترجع عوامل الحسد والحقد والعناد النفسية [1].

---

(١) في هذه الحالة أصبحت الفكرة جزءاً من الذات، وانتقل الغافل من الدفاع عن الفكرة إلى دفاع عن الذات التي لا يرضى لها النقصان، والاعتراف بخطأ الفكرة يعني النقص في ⇐

◆ إن حب الآباء يبعث الأبناء على تقليدهم، وهو واحد من العوامل الأخرى التي تدفعهم نحوهم، مثل احترامهم والخشية منهم على المصالح وترسب أفكارهم منذ الطفولة. مما يجعل الفرد يتمسك بأفكارهم وعقائدهم التي ورثها منهم، ولعمري إن هذه هي المعضلة الكبرى، لأن اتباع الوالدين يبدأ عند الإنسان منذ طفولته وتكبر معه هذه الحالة حتى بعد استقلاله التام، ويعود ذلك لعدة أسباب:

١.صعوبة اقتلاع الأفكار بعد رسوخها أيام الصبا، ويبدو أن رسوخ بعض الأفكار يتطاول في بعض الأحيان على التغيير. إلا أن ذلك التطاول ناشئ عن غفلة الشخص واستهانته بإعادة النظر في سابقياته التي اكتسبها أيام الطفولة، مما يدل على أن استمرار تأثير الوالدين ليس حتمياً.

٢.إن احترام الإنسان لوالديه يستمر بعد أيام طفولته، ويكون هو السبب في نشوء حس التقليد لديه، ويكون هو أيضاً السبب في استمراره، رغم أن احترام أحد لا يفرض عليه اتباعه فرضاً حتمياً.

إن التخلص من أفكار أحد يستتبع بالطبع تخطئة هذا الشخص، وحب

الذات التي يعشقها.

الآباء لا يدع الفرد يخطئ والديه، فالحب هذا هو مصدر استمرار اتباع الوالدين، والملاحظ أن السبب لا يوجب حتمية الاتباع، إذ إنها جميعاً ناشئات العواطف، والغفلة والاحترام. وكل ذلك لا يذهب بقدرة الإنسان على التفكير الحر، ولقد ذكّر الإسلام بدور تقليد الآباء في انحراف الفرد وإضلاله ـ كما ذكرنا سابقاً ـ وإليك عزيزي القارئ نماذج مهمة تلخص ما ذكرناه آنفاً:

ـ يقول تعالى: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَى مَا أَنزَلَ اللّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُواْ حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ المائدة/١٠٤.

إن كلمة حسبنا في هذه الآيات ذات دلالة بليغة على أن سبب اعتماد الناس على آبائهم هو الإشباع الفكري والثقافي، إذ إن أفكار الآباء تجعلهم مكتفين ـ في زعمهم ـ عن أتعاب البحث، ويقول سبحانه: ﴿وَإِذَا فَعَلُواْ فَاحِشَةً قَالُواْ وَجَدْنَا عَلَيْهَا آبَاءنَا﴾ الأعراف/ ٢٨.

وهنا يصعب على القوم الاعتقاد بضلالة الآباء، ربما بسبب حب الأبناء لهم واحترامهم إياهم.

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾ الزخرف/ ٢٣.

في هذه الآية نلاحظ مدى رسوخ عادة اتباع الآباء في جميع الأمم

المتخلفة مما يدل على وجود جذور لدى كل البشر لهٰذا الاتباع.

✦ لا يحب الإنسان أبويه حباً يبعث على التقليد الأعمى فحسب، بل ينطلق من دائرة أوسع، فيرتبط بالبيئة الاجتماعية والثقافية التي يعيش ضمن نسيجها، ذٰلك أن الإنسان يحب نظيره الإنسان ويحب لذٰلك أقرب الناس إليه فالأقرب (الأصدقاء والأساتذة). وليس الحب هنا إلا أضعف العوامل الباعثة على تقليد البيئة، أما الأقوى تأثيراً فهو الخوف على المصالح [1]، ثم الانفتاح على أفكارهم الجاهزة واحترامها احتراماً يبعث على التقليد.. وهٰذا بدروه يقودنا إلى الحديث عن حس التوافق الاجتماعي المتأصل لدى البشر لخوفه من العزلة ولرجائه في التجمع (خدمةً للذات) .. إن الإنسان خلق من ضعف، فيخشى أبداً من كل شيء أولا أقل يتهيب من كل شيء ويبحث أبداً عن نصير، وهٰذا يبعثه نحو الالتحام بالآخرين كما يولد لديه هيبة من المجتمع مما يؤدي إلى افتقاد عنصر النقد لأعمالهم، وبالتالي تعطل هذه الطاقة في الفرد مما يهيئ الجو أمام الإيحاء المباشر وغير المباشر.

وللخروج من مثل هذه الحالة وغيرها لا بد من التجرد وكبح جماح النفس وعدم التمادي معها.. لأن الخوف والرجاء (فيما يرتبط بخدمة

---

(١) عندما نطلق كلمة مصالح لا نقصد بها المادية فقط إنما كل ما يخدم الذات ويشبع جزءاً من حاجاتها فهو مصلحة كالشهرة والجاه وتعظيم الذكر لدى الناس ... الخ.

الذات) يزداد قوة بمقدار عشق الفرد لذاته، وبقدر تجرده عن ذاته (مجانبة الهوى) يتضاءل لديه الخوف والرجاء، فينعتق عن السير الأعمى خلف الآباء والأجداد والمجتمع، وكذا العلماء والسابقين كما نبين.

ولعل الآيات القرآنية التالية ووصايا أهل البيت عليهم السلام تعطي المناعة ضد ما يسمى بالتوافق الاجتماعي.

قال الإمام الكاظم عليه السلام في وصيته الرشيدة لهشام بن الحكم وهو يستدل بالقرآن الكريم: يا هشام، ثم ذم الذين لا يعقلون، فقال: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتبِعُوا مَآ أَنزَلَ اللّهُ قَالُواْ بَلْ نَتَّبِعُ مَآ أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلاَ يَهْتَدُونَ﴾ البقرة/ ١٧٠، ثم ذم الكثرة فقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَر مَن فِي الأَرْضِ يُضِلُّوكَ﴾ وقال: ﴿أَكْثَرهُمْ لاَ يَعْقِلُونَ﴾، ﴿وأكثرهم لا يَشْعُرُونَ﴾، يا هشام، ثم مدح الله تعالى القلة فقال: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾، وقال: ﴿وقليل ما هم﴾، وقال: ﴿وَمَآ آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ﴾، وقال: ﴿وَكُنَّا نَخُوضُ مَعَ الْخَائِضِينَ﴾ [١].

نخلص مما سبق إلى أن المحيط الاجتماعي يضغط على الإنسان ليتبنى

---

(١) سنورد هذا الحديث عن الإمام الكاظم عليه السلام (وصيته لهشام بن الحكم) كاملاً في آخر هذا الفصل لما فيه من حكم وبصائر تنفع الذاكرين.

ما عليه المجموع فلا يقوى على التمرد، ثم يعمل على الدفاع عن أفكار ذلك المحيط، لذا على المرء أن يتحصن ضد المحيط الاجتماعي ويضعه في حجمه الطبيعي لكي يهتدي إلى الحق.

◆ ومن المشاكل المعقدة التي تقف حجر عثرة أمام الإنسان في نقده للأفكار والمعتقدات، حب السلف والسابقين من العلماء والعظماء حباً يبعث على اتباعهم والاتكال عليهم، دون بحث جديد في أفكارهم لتقييمها ونبذ الأفكار الخاطئة، وتأصل هذه العقدة عند الإنسان بسبب ميله الدائم للراحة والابتعاد عن عناء البحث والتنقيب لفرز الجيد عن الرديء، فيركن إلى من سبقه دون محاولة منه للتحقيق فيه وإعادة النظر والتأكد، كما أن فقدان الثقة يعمق العقدة لديه فيرى نفسه دوماً دون هٰؤلاء العظماء (عنده) والسابقين، وإعادة النظر في ما أوصلوه إليه من فكر وثقافة يمثل سوء أدب وخروجاً عن الصراط المستقيم.

وكثيراً ما صادفت أمثال هؤلاء الذين تجلت فيهم هذه العقدة فألغت شخصيتهم تماماً.. ويتذرعون بقولهم، هل من المعقول أن العالم الفلاني لم يصل إلى هذه الحقيقة؟! أو لماذا لم يصل السابقون من علمائنا الأفذاذ إلى ما توصلتم إليه؟!.

◆ وبهذه الطريقة نفقد الثقة في أنفسنا وتعطل الطاقات الجبارة المودعة لدينا، وبالتالي نفقد القدرة على التمييز بين الخطأ والصواب. . ليس المطلوب التمرد التام على كل ما يطلق عليه صفة عالم وفق المنظور الديني [1]، ولكن الهدف هو التمحيص والتدقيق حتى لا نصبح مثل أولئك الذين ذكرهم القرآن في قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تُقَلَّبُ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَلَيْتَنَآ أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولاَ (٦٦) وَقَالُواْ رَبَّنَآ إِنَّآ أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَآءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلاْ (٦٧) رَبَّنَآ آتِهِمْ ضِعْفَيْنِ مِنَ الْعَذَابِ وَالْعَنْهُمْ لَعْناً كَبِيراً﴾ الأحزاب/ ٦٦ ـ ٦٨.

الخلاصة

إننا ندعو كل الناس للرجوع إلى عقولهم وتحكيم وجدانهم، حتى يروا الحق حقاً فيتبعوه ويروا الباطل باطلاً فيجتنبوه، وذلك بالنظر في أقوال الملل والنحل المختلفة، والتأكد مما هم عليه... ومن الواضح أن المجاملة والعاطفة في مثل هذه الأمور الحساسة لا تجدي نفعاً، فالحديث هنا (في هذا الكتاب) ليس انصرافياً ولا هامشياً، إنما يرتبط بصميم المعتقد الذي

---

(١) إذ إن عالم الدين الحقيقي هو الذي يجب أن تلتف حوله الأمة للنهوض بها.. لكن بعد التأكد من صدق المعتقد وسلامة الفكر وحسن السلوك.

بصحته تكون النجاة من النار كما تكون الحياة السعيدة في الدنيا، لأن الثقافة التي لا تعتمد على جذور ثابتة تمثلها العقائد الصحيحة، تكون ثقافة مشوهة تسيء للإسلام أكثر مما تخدمه، فدعنا نبني الركائز السليمة لفكرنا الإسلامي بأسس متينة تعيننا على استنباط ثقافة تواجه ما يحيط بالأمة من مكائد ومصائب داخلية وخارجية...

أما فكر وثقافة بني أمية وبني العباس التي تسربت إلينا نتيجة تسلطهم على الأمة واستلامهم لزمام الأمور فيها، فنتائجها لا تغفلها بصيرة المسلمين... وسنحاول أن نبين أثر ذلك في ثقافة المسلمين بإشارة خفيفة، على أن نعود إلى ذلك في دراسة أخرى أكثر شمولاً وتفصيلاً.

العقل والوحي

وتركيزنا على العقل يجب ألا يفهم منه إغفال دور الوحي بشقيه (القرآن، والسنة)، بل إن التركيز على العقل وسائر ملكات الإنسان الموهوبة هو الطريق إلى التسليم بالوحي والإيمان به والعمل وفقه.

فكما أن العقل هو هبة ونعمة من الله تعالى وسمته العصمة والكاشفية، كذلك الوحي، فالقرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه (العصمة)، هو النور الذي أنزل إلينا ليهدينا الصراط المستقيم، يقول

تعالى، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَآ إِلَيْكُمْ نُوراً مُّبِيناً﴾ النساء/ ١٧٤، ﴿ذٰلِكَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ البقرة/ ٢،

﴿اللَّهُ الَّذِيَ أَنزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾ الشورى/ ١٥.

والرسول ﷺ بكلماته المعبرة عن الوحي إنما هو قرآن ناطق يفسر الآيات ويفصل مجملها، فنحن مأمورون بطاعته طاعة مطلقة لا حرج فيها ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾ النساء/ ٦٥، ﴿وَأَطِيعُواْ اللّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ آل عمران/ ١٣٢، ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ النساء/ ٦٤، ويقول تعالى، ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ (٣) إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَىٰ﴾ النجم/ ٣ ـ ٤.

فالتسليم للوحي (القرآن والسنة) هو في الواقع من لوازم العقل، لذلك فإن الرسالات السماوية تخاطب الإنسان ولا شيء غيره كما أسلفنا..

تبقى العلاقة بين العقل والوحي علاقة تكامل، لأنهما نور واحد، ومصدرهما واحد فهما في حالة تناغم كما يعبر عن ذلك الإمام الكاظم في وصيته لهشام، (إن لله على الناس حجتين حجة ظاهرة الأنبياء والرسل والأئمة وحجة باطنة العقول)، والرسول عقل ظاهر والعقل رسول باطن.

والعقل في صراعه مع الهوى (الجهل)، ونسبة لطبيعة الإنسان التي تميل به إلى الهوى ، يحتاج إلى عقل خارجي يُذكّر ويُزكّي ويُعلّم في محاولة للعودة إلى الصراط المستقيم، وهٰذا هو دور القرآن العظيم وكلمات المعصوم المضيئة، فيتذكر الإنسان ويثوب إلى رشده، وإذا بالعقل يتوهج ويتدرج الإنسان في مدارج الكمال، .. كما أن الوحي الذي هو علم من الله يعطي للعقل دفعات من الحقائق المعرفية تعين الإنسان للانطلاق.

في ختام هٰذا الفصل نتركك عزيزي القارئ مع الوصية الذهبية للإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام لهشام بن الحكم.. والتي كغيرها من كلمات أهل البيت عليهم السلام تحمل نوراً يهتدى به العارفون والمؤمنون...

ومنذ أن منّ الله علي بمعرفة التشيع والالتزام به عقيدة ومنهجاً أزداد كل يوم ولهاً وعشقاً لهٰؤلاء الأئمة المعصومين، وما أقرأ حديثاً أو وصية لأحدهم إلا وأشم فيها عبق الرسالة وأرى نور الوحي... نهج البلاغة ذٰلك السفر العظيم تجدني أخجل إن حاولت الحديث عنه ولا أمل النقل منه، ولن أقنع بأي شخص يحاول أن يصف عظمته وعلو شأنه لأنه لن يبلغ.. وهكذا تجدني أزداد نوراً على نور كلما تليتُ أو تُليت على مسامعي روايات وأحاديث أهل البيت عليهم السلام والتي نقلوها عن جدهم

المصطفى صلى الله عليه وآله... وإني لآسى على حال البقية الباقية من أمة المسلمين الذين لم يروا ولم يسمعوا عن أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم إلا ما يُردده الجاهلون، ... وحقاً أنه لخسران مبين أن يسد الإنسان على نفسه باب العلم والهداية التي نطق بها تراجمة الوحي وخزان علم الله، أئمة الهدى الذين قال الله تعالى عنهم ﴿فَاسْئَلُوٓاْ أهل الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ [1].

إنها دعوة صادقة لن نمل من تكرارها للرجوع إلى الحق المتمثل في نهج أهل البيت عليهم السلام.

كنت أتباحث مع بعض الأصدقاء والأقارب حول بعض المسائل العقائدية والفقهية وفق ما جاء في نهج أهل البيت عليهم السلام وشيعتهم، وكان حاضراً بيننا أحد الأقرباء ولم يكن شيعياً، وأعجب بمحتوى المسائل العقائدية المطروحة مع أنها كانت تخالف ما يؤمن به تماماً، إلا أن الأحاديث والروايات التي كنت أنقلها عن أهل بيت الرسالة عليهم السلام مقنعة لمن ألقى السمع وهو شهيد، فأظهر ارتياحه لتلك الجلسة مع التمسك بتحفظه تجاه تشيعنا، ذلك التمسك الذي في اعتقادي ينبع من حالة نفسية أكثر مما هي قضية عقلية كما بينا في هٰذا الفصل، فقلت له: إذا كنت تريد

(١) الآية ٧ سورة الأنبياء.

دين الله تعالى كما أنزله فلن تجده إلا عند أهل البيت عليهم السلام ،ولا نملك دليلاً أكبر من وصية النبي صلى الله عليه وآله باتباعهم، ولا أكثر مما تسمعه الآن من أحاديث عن أهل البيت عليهم السلام ،افتحوا قلوبكم وعقولكم ستجدون أنه الحق ولا تكونوا من الممترين... وإليك عزيزي القارئ وصية الإمام الكاظم موسى بن جعفر عليه السلام.

الوصية

عَنْ هِشَامِ بْنِ الْحَكَمِ قَالَ قَالَ لِي أَبُو الْحَسَنِ مُوسَى بْنُ جَعْفَرٍ عليه السلام : «يَا هِشَامُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتعالى بَشَّرَ أهل الْعَقْلِ وَالْفَهْمِ فِي كِتَابِهِ فَقَالَ ﴿فَبَشِّرْ عِبادِ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أولئك الَّذِينَ هَداهُمُ اللَّهُ وَأولئك هُمْ أُولُوا الأَلْبابِ﴾.

يَا هِشَامُ، إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتعالى أَكْمَلَ لِلنَّاسِ الْحُجَجَ بِالْعُقُولِ، وَنَصَرَ النَّبِيِّينَ بِالْبَيَانِ، وَدَلَّهُمْ عَلَى رُبُوبِيَّتِهِ بِالأَدِلَّةِ فَقَالَ ﴿وَإِلهُكُمْ إِلهٌ واحِدٌ لا إِلهَ إِلا هُوَ الرحْمنُ الرَّحِيمُ. إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماواتِ وَالأرض وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ وَالْفُلْكِ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِما يَنْفَعُ النَّاسَ وَما أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّماءِ مِنْ ماءٍ فَأَحْيا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِها وَبَثَّ فِيها مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ

الرِّياحِ وَالسَّحابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّماءِ وَالأرض لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يَا هِشَامُ، قَدْ جَعَلَ اللَّهُ ذلك دَلِيلًا عَلى مَعْرِفَتِهِ بِأَنَّ لَهُمْ مُدَبِّراً فقال ﴿وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومُ مُسَخَّراتٌ بِأَمْرِهِ إِنَّ فِي ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿هُوَ الَّذي خَلَقَكُمْ مِنْ تُرابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ يُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ ثُمَّ لِتَكُونُوا شُيُوخاً وَمِنْكُمْ مَنْ يُتَوَفَّى مِنْ قَبْلُ وَلِتَبْلُغُوا أَجَلًا مُسَمًّى وَلَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿إِنَّ فِي اخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ رِزْقٍ فَأَحْيَا بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِهَا وَتَصْرِيفِ الرِّياحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالأرض لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿يُحْيِ الأرض بَعْدَ مَوْتِها قَدْ بَيَّنَّا لَكُمُ الآياتِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوانٌ وَغَيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بِماءٍ واحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَها عَلى بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذلك لآياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿وَمِنْ آياتِهِ يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفاً وَطَمَعاً وَيُنَزِّلُ مِنَ السَّماءِ ماءً فَيُحْيِي بِهِ الأرض بَعْدَ مَوْتِها إِنَّ فِي ذلك لاياتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿قُلْ تَعالَوْا أَتْلُ ما حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ ألا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً وَبِالْوالِدَيْنِ إِحْساناً وَلا تَقْتُلُوا أَوْلادَكُمْ مِنْ إِمْلاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلا تَقْرَبُوا الْفَواحِشَ ما ظَهَرَ مِنْها وَما بَطَنَ وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إلا بِالْحَقِّ

ذٰلكمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿هَلْ لَكُمْ مِنْ مَا مَلَكَتْ إيمانكُمْ مِنْ شُرَكاءَ فِي ما رَزَقْناكُمْ فَأَنْتُمْ فِيهِ سَواءٌ تَخافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أَنْفُسَكُمْ كَذٰلكَ نُفَصِّلُ الآياتِ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يَا هِشَامُ، ثُمَّ وَعَظَ أهلَ الْعَقْلِ وَرَغَّبَهُمْ فِي الآخِرَةِ فَقَالَ ﴿وَمَا الْحَياةُ الدُّنْيا إلا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَلَلدَّارُ الآخِرَةُ خَيْرٌ لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ﴾.

يَا هِشَامُ، ثُمَّ خَوَّفَ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ عِقَابَهُ فَقَالَ تعالى ﴿ثُمَّ دَمَّرْنَا الآخَرِينَ. وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِمْ مُصْبِحِينَ. وَبِاللَّيْلِ أَ فَلا تَعْقِلُونَ﴾. وَقَالَ ﴿إِنَّا مُنْزِلُونَ عَلى أَهلِ هذِهِ الْقَرْيَةِ رِجْزاً مِنَ السَّماءِ بِما كانُوا يَفْسُقُونَ وَلَقَدْ تَرَكْنا مِنْها آيَةً بَيِّنَةً لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعَقْلَ مَعَ الْعِلْمِ فَقَالَ ﴿وَتِلْكَ الأَمْثالُ نَضْرِبُها لِلنَّاسِ وَما يَعْقِلُها إِلا الْعالِمُونَ﴾.

يَا هِشَامُ، ثُمَّ ذَمَّ الَّذِينَ لا يَعْقِلُونَ فَقَالَ ﴿وَإِذا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا ما أَنْزَلَ اللّٰهُ قالُوا بَلْ نَتَّبِعُ ما أَلْفَيْنا عَلَيْهِ آباءَنا أَ وَلَوْ كانَ آباؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلا يَهْتَدُونَ﴾ وَقَالَ ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِما لا يَسْمَعُ إِلا دُعاءً وَنِداءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ أَ فَأَنْتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كانُوا لا يَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أكثرهُمْ

يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلا كَالأنعام بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ وَقَالَ ﴿لا يُقاتِلُونَكُمْ جَمِيعاً إِلا فِي قُرىً مُحَصَّنَةٍ أَوْ مِنْ وَراءِ جُدُرٍ بَأْسُهُمْ بَيْنَهُمْ شَدِيدٌ تَحْسَبُهُمْ جَمِيعاً وَقُلُوبُهُمْ شَتَّى ذلك بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتابَ أَ فَلا تَعْقِلُونَ﴾.

يَا هِشَامُ، ثُمَّ ذَمَّ اللَّهُ الْكَثْرَةَ فَقَالَ ﴿وَإِنْ تُطِعْ أكثر مَنْ فِي الأرض يُضِلُّوكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ وَقَالَ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ خَلَقَ السَّماوات وَالأرض لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أكثرهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وَقَالَ ﴿وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ مَنْ نَزَّلَ مِنَ السَّماءِ ماءً فَأَحْيا بِهِ الأرض مِنْ بَعْدِ مَوْتِها لَيَقُولُنَّ اللَّهُ قُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أكثرهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾.

يَا هِشَامُ، ثُمَّ مَدَحَ الْقِلَّةَ فَقَالَ ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبادِيَ الشَّكُورُ﴾ وَقَالَ ﴿وَقَلِيلٌ ما هُمْ﴾ وَقَالَ ﴿وَقالَ رَجُلٌ مُؤْمِنٌ مِنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمانَهُ أَ تَقْتُلُونَ رَجُلًا أَنْ يَقُولَ رَبِّيَ اللَّهُ﴾ وَقَالَ ﴿وَمَنْ آمَنَ وَما آمَنَ مَعَهُ إِلا قَلِيلٌ﴾ وَقَالَ ﴿وَلكِنَّ أكثرهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ وَقَالَ ﴿وَأكثرهُمْ لا يَعْقِلُونَ﴾ وَقَالَ ﴿وَأكثرهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾.

يَا هِشَامُ، ثُمَّ ذَكَرَ أُولِي الأَلْبَابِ بِأَحْسَنِ الذِّكْرِ وَحَلَّاهُمْ بِأَحْسَنِ الْحِلْيَةِ فَقَالَ ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشاءُ وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَما

يَذَّكَّرُ إلا أُولُوا الألْبابِ﴾ وَقَالَ ﴿وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ يَقُولُونَ آمَنَّا بِهِ كُلٌّ مِنْ عِنْدِ رَبِّنا وَما يَذَّكَّرُ إلا أُولُوا الألْبابِ﴾ وَقَالَ ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ السَّماوات وَالأرض وَاخْتِلافِ اللَّيْلِ وَالنَّهارِ لآياتٍ لأولِي الألْبابِ﴾ وَقَالَ ﴿أَ فَمَنْ يَعْلَمُ أَنَّما أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمى إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألْبابِ﴾ وَقَالَ ﴿أَمَّنْ هُوَ قانِتٌ آناءَ اللَّيْلِ ساجِداً وَقائِماً يَحْذَرُ الآخِرَةَ وَيَرْجُو رَحْمَةَ رَبِّهِ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ إِنَّما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألْبابِ﴾ وَقَالَ ﴿كِتابٌ أَنْزَلْناهُ إِلَيْكَ مُبارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُوا الألْبابِ﴾ وَقَالَ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا مُوسَى الْهُدى وَأَوْرَثْنا بَنِي إِسْرائِيلَ الْكِتابَ هُدىً وَذِكْرى لأولِي الألْبابِ﴾ وَقَالَ ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾.

يَا هِشَامُ، إِنَّ اللَّهَ تعالى يَقُولُ فِي كِتَابِهِ ﴿إِنَّ فِي ذلك لَذِكْرى لِمَنْ كانَ لَهُ قَلْبٌ﴾ يَعْنِي عَقْلٌ وَقَالَ ﴿وَلَقَدْ آتَيْنا لُقْمانَ الْحِكْمَةَ﴾ قَالَ الْفَهْمَ وَالْعَقْل.

يَا هِشَامُ، إِنَّ لُقْمَانَ قَالَ لابْنِهِ، تَوَاضَعْ لِلْحَقِّ تَكُنْ أَعْقَلَ النَّاسِ، وَإِنَّ الْكَيِّسَ لَدَى الْحَقِّ يَسِيرٌ، يَا بُنَيَّ إِنَّ الدُّنْيَا بَحْرٌ عَمِيقٌ قَدْ غَرِقَ فِيهَا عَالَمٌ كَثِيرٌ، فَلْتَكُنْ سَفِينَتُكَ فِيهَا تَقْوَى اللَّهِ، وَحَشْوُهَا الإيمان، وَشِرَاعُهَا التَّوَكُّلَ، وَقَيِّمُهَا الْعَقْلَ، وَدَلِيلُهَا الْعِلْمَ، وَسُكَّانُهَا الصَّبْرَ.

يَا هِشَامُ، إِنَّ لِكُلِّ شَيْءٍ دَلِيلًا وَدَلِيلُ الْعَقْلِ التَّفَكُّرُ، وَدَلِيلُ التَّفَكُّرِ

الصَّمْتُ، وَلِكُلِّ شَيْءٍ مَطِيَّةٌ وَمَطِيَّةُ الْعَقْلِ التَّوَاضُعُ، وَكَفَى بِكَ جَهْلًا أَنْ تَرْكَبَ مَا نُهِيتَ عَنْهُ.

يَا هِشَامُ، مَا بَعَثَ اللَّهُ أَنْبِيَاءَهُ وَرُسُلَهُ إِلَى عِبَادِهِ إلا لِيَعْقِلُوا عَنِ اللَّهِ، فَأَحْسَنُهُمُ اسْتِجَابَةً أَحْسَنُهُمْ مَعْرِفَةً، وَأَعْلَمُهُمْ بِأَمْرِ اللَّهِ أَحْسَنُهُمْ عَقْلًا، وَأَكْمَلُهُمْ عَقْلًا أَرْفَعُهُمْ دَرَجَةً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ.

يَا هِشَامُ، إِنَّ لِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ حُجَّةً ظَاهِرَةً وَحُجَّةً بَاطِنَةً فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالأنبياء وَالأئمة عليهم السلام وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُولُ.

يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعَاقِلَ الَّذِي لا يَشْغَلُ الْحَلالُ شُكْرَهُ وَلا يَغْلِبُ الْحَرَامُ صَبْرَهُ.

يَا هِشَامُ، مَنْ سَلَّطَ ثَلاثاً عَلَى ثَلاثٍ فَكَأَنَّمَا أَعَانَ عَلَى هَدْمِ عَقْلِهِ، مَنْ أَظْلَمَ نُورَ تَفَكُّرِهِ بِطُولِ أَمَلِهِ، وَمَحَا طَرَائِفَ حِكْمَتِهِ بِفُضُولِ كَلامِهِ، وَأَطْفَأَ نُورَ عِبْرَتِهِ بِشَهَوَاتِ نَفْسِهِ، فَكَأَنَّمَا أَعَانَ هَوَاهُ عَلَى هَدْمِ عَقْلِهِ، وَمَنْ هَدَمَ عَقْلَهُ أَفْسَدَ عَلَيْهِ دِينَهُ وَدُنْيَاهُ.

يَا هِشَامُ، كَيْفَ يَزْكُو عِنْدَ اللَّهِ عَمَلُكَ وَأَنْتَ قَدْ شَغَلْتَ قَلْبَكَ عَنْ أَمْرِ رَبِّكَ وَأَطَعْتَ هَوَاكَ عَلَى غَلَبَةِ عَقْلِكَ.

يَا هِشَامُ، الصَّبْرُ عَلَى الْوَحْدَةِ عَلامَةُ قُوَّةِ الْعَقْلِ، فَمَنْ عَقَلَ عَنِ اللَّهِ اعْتَزَلَ

أهل الدُّنْيَا وَالرَّاغِبِينَ فِيهَا وَرَغِبَ فِيمَا عِنْدَ اللَّهِ، وَكَانَ اللَّهُ أُنْسَهُ فِي الْوَحْشَةِ وَصَاحِبَهُ فِي الْوَحْدَةِ وَغِنَاهُ فِي الْعَيْلَةِ وَمُعِزَّهُ مِنْ غَيْرِ عَشِيرَةٍ.

يَا هِشَامُ، نَصْبُ الْحَقِّ لِطَاعَةِ اللَّهِ وَلا نَجَاةَ إِلا بِالطَّاعَةِ، وَالطَّاعَةُ بِالْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ بِالتَّعَلُّمِ، وَالتَّعَلُّمُ بِالْعَقْلِ يُعْتَقَدُ، وَلا عِلْمَ إِلا مِنْ عَالِمٍ رَبَّانِيٍّ، وَمَعْرِفَةُ الْعِلْمِ بِالْعَقْلِ.

يَا هِشَامُ، قَلِيلُ الْعَمَلِ مِنَ الْعَالِمِ مَقْبُولٌ مُضَاعَفٌ، وَكَثِيرُ الْعَمَلِ مِنْ أَهْلِ الْهَوَى وَالْجَهْلِ مَرْدُودٌ.

يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعَاقِلَ رَضِيَ بِالدُّونِ مِنَ الدُّنْيَا مَعَ الْحِكْمَةِ، وَلَمْ يَرْضَ بِالدُّونِ مِنَ الْحِكْمَةِ مَعَ الدُّنْيَا، فَلِذَلِكَ رَبِحَتْ تِجَارَتُهُمْ.

يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعُقَلاءَ تَرَكُوا فُضُولَ الدُّنْيَا فَكَيْفَ الذُّنُوبَ، وَتَرْكُ الدُّنْيَا مِنَ الْفَضْلِ وَتَرْكُ الذُّنُوبِ مِنَ الْفَرْضِ.

يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعَاقِلَ نَظَرَ إِلَى الدُّنْيَا وَإِلَى أَهْلِهَا فَعَلِمَ أَنَّهَا لا تُنَالُ إِلا بِالْمَشَقَّةِ، وَنَظَرَ إِلَى الآخِرَةِ فَعَلِمَ أَنَّهَا لا تُنَالُ إِلا بِالْمَشَقَّةِ، فَطَلَبَ بِالْمَشَقَّةِ أَبْقَاهُمَا.

يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعُقَلاءَ زَهِدُوا فِي الدُّنْيَا وَرَغِبُوا فِي الآخِرَةِ، لأَنَّهُمْ عَلِمُوا أَنَّ الدُّنْيَا طَالِبَةٌ مَطْلُوبَةٌ وَالآخِرَةَ طَالِبَةٌ وَمَطْلُوبَةٌ، فَمَنْ طَلَبَ الآخِرَةَ طَلَبَتْهُ الدُّنْيَا

حَتَّى يَسْتَوْفِيَ مِنْهَا رِزْقَهُ، وَمَنْ طَلَبَ الدُّنْيَا طَلَبَتْهُ الآخِرَةُ فَيَأْتِيهِ الْمَوْتُ فَيُفْسِدُ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ وَآخِرَتَهُ.

يَا هِشَامُ، مَنْ أَرَادَ الْغِنَى بِلا مَالٍ، وَرَاحَةَ الْقَلْبِ مِنَ الْحَسَدِ، وَالسَّلامَةَ فِي الدِّينِ، فَلْيَتَضَرَّعْ إِلَى اللَّهِ عزّ وجلّ فِي مَسْأَلَتِهِ بِأَنْ يُكَمِّلَ عَقْلَهُ، فَمَنْ عَقَلَ قَنِعَ بِمَا يَكْفِيهِ، وَمَنْ قَنِعَ بِمَا يَكْفِيهِ اسْتَغْنَى، وَمَنْ لَمْ يَقْنَعْ بِمَا يَكْفِيهِ لَمْ يُدْرِكِ الْغِنَى أَبَداً.

يَا هِشَامُ، إِنَّ اللَّهَ حَكَى عَنْ قَوْمٍ صَالِحِينَ أَنَّهُمْ قَالُوا، رَبَّنا لا تُزِغْ قُلُوبَنا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنا وَهَبْ لَنا مِنْ لَدُنْكَ رَحْمَةً إِنَّكَ أَنْتَ الْوَهَّابُ، حِينَ عَلِمُوا أَنَّ الْقُلُوبَ تَزِيغُ وَتَعُودُ إِلَى عَمَاهَا وَرَدَاهَا، إِنَّهُ لَمْ يَخَفِ اللَّهَ مَنْ لَمْ يَعْقِلْ عَنِ اللَّهِ، وَمَنْ لَمْ يَعْقِلْ عَنِ اللَّهِ لَمْ يَعْقِدْ قَلْبَهُ عَلَى مَعْرِفَةٍ ثَابِتَةٍ يُبْصِرُهَا وَيَجِدُ حَقِيقَتَهَا فِي قَلْبِهِ، وَلا يَكُونُ أَحَدٌ كَذَلِكَ إِلا مَنْ كَانَ قَوْلُهُ لِفِعْلِهِ مُصَدِّقاً وَسِرُّهُ لِعَلانِيَتِهِ مُوَافِقاً، لأَنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ اسْمُهُ لَمْ يَدُلَّ عَلَى الْبَاطِنِ الْخَفِيِّ مِنَ الْعَقْلِ إِلا بِظَاهِرٍ مِنْهُ وَنَاطِقٍ عَنْهُ.

يَا هِشَامُ، كَانَ أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام يَقُولُ، مَا عُبِدَ اللَّهُ بِشَيْءٍ أفضل مِنَ الْعَقْلِ، وَمَا تَمَّ عَقْلُ امْرِئٍ حَتَّى يَكُونَ فِيهِ خِصَالٌ شَتَّى، الْكُفْرُ وَالشَّرُّ مِنْهُ مَأْمُونَانِ وَالرُّشْدُ وَالْخَيْرُ مِنْهُ مَأْمُولانِ، وَفَضْلُ مَالِهِ مَبْذُولٌ وَفَضْلُ قَوْلِهِ

مَكْفُوفٌ، وَنَصِيبُهُ مِنَ الدُّنْيَا الْقُوتُ، لا يَشْبَعُ مِنَ الْعِلْمِ دَهْرَهُ، الذُّلُّ أَحَبُّ إِلَيْهِ مَعَ اللَّهِ مِنَ الْعِزِّ مَعَ غَيْرِهِ، وَالتَّوَاضُعُ أَحَبُّ إِلَيْهِ مِنَ الشَّرَفِ، يَسْتَكْثِرُ قَلِيلَ الْمَعْرُوفِ مِنْ غَيْرِهِ وَيَسْتَقِلُّ كَثِيرَ الْمَعْرُوفِ مِنْ نَفْسِهِ، وَيَرَى النَّاسَ كُلَّهُمْ خَيْراً مِنْهُ وَأَنَّهُ شَرُّهُمْ فِي نَفْسِهِ وَهُوَ تَمَامُ الأَمْرِ.

يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعَاقِلَ لا يَكْذِبُ وَإِنْ كَانَ فِيهِ هَوَاهُ.

يَا هِشَامُ، لا دِينَ لِمَنْ لا مُرُوَّةَ لَهُ، وَلا مُرُوَّةَ لِمَنْ لا عَقْلَ لَهُ، وَإِنَّ أعظم النَّاسِ قَدْراً الَّذِي لا يَرَى الدُّنْيَا لِنَفْسِهِ خَطَراً، أَمَا إِنَّ أَبْدَانَكُمْ لَيْسَ لَهَا ثَمَنٌ إِلا الْجَنَّةُ فَلا تَبِيعُوهَا بِغَيْرِهَا.

يَا هِشَامُ، إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام كَانَ يَقُولُ: إِنَّ مِنْ عَلامَةِ الْعَاقِلِ أَنْ يَكُونَ فِيهِ ثَلاثُ خِصَالٍ، يُجِيبُ إِذَا سُئِلَ، وَيَنْطِقُ إِذَا عَجَزَ الْقَوْمُ عَنِ الْكَلامِ، وَيُشِيرُ بِالرَّأْيِ الَّذِي يَكُونُ فِيهِ صَلاحُ أهلِهِ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مِنْ هَذِهِ الْخِصَالِ الثَّلاثِ شَيْءٌ فَهُوَ أَحْمَقُ، إِنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام قَالَ: لا يَجْلِسُ فِي صَدْرِ الْمَجْلِسِ إِلا رَجُلٌ فِيهِ هَذِهِ الْخِصَالُ الثَّلاثُ أَوْ وَاحِدَةٌ مِنْهُنَّ، فَمَنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ شَيْءٌ مِنْهُنَّ فَجَلَسَ فَهُوَ أَحْمَقُ، وَقَالَ الْحَسَنُ بْنُ عَلِيٍّ عليه السلام إِذَا طَلَبْتُمُ الْحَوَائِجَ فَاطْلُبُوهَا مِنْ أهلِهَا قِيلَ يَا بْنَ رَسُولِ اللَّهِ وَمَنْ أهلهَا؟، قَالَ الَّذِينَ قَصَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ وَذَكَرَهُمْ فَقَالَ: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ قَالَ:

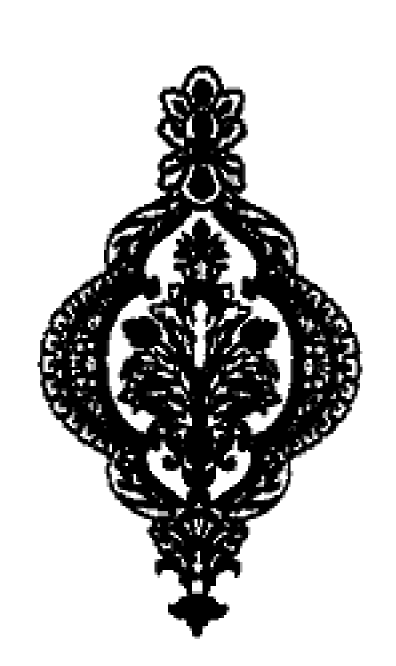
هُمْ أُولُوا الْعُقُولِ، وَقَالَ عَلِيُّ بْنُ الْحُسَيْنِ عليه السلام ، مُجَالَسَةُ الصَّالِحِينَ دَاعِيَةٌ إِلَى الصَّلاحِ، وَآدَابُ الْعُلَمَاءِ زِيَادَةٌ فِي الْعَقْلِ، وَطَاعَةُ وُلاةِ الْعَدْلِ تَمَامُ الْعِزِّ، وَاسْتِثْمَارُ الْمَالِ تَمَامُ الْمُرُوءَةِ، وَإِرْشَادُ الْمُسْتَشِيرِ قَضَاءٌ لِحَقِّ النِّعْمَةِ، وَكَفُّ الأَذَى مِنْ كَمَالِ الْعَقْلِ وَفِيهِ رَاحَةُ الْبَدَنِ عَاجِلاً وَآجِلاً.

يَا هِشَامُ، إِنَّ الْعَاقِلَ لا يُحَدِّثُ مَنْ يَخَافُ تَكْذِيبَهُ، وَلا يَسْأَلُ مَنْ يَخَافُ مَنْعَهُ، وَلا يَعِدُ مَا لا يَقْدِرُ عَلَيْهِ، وَلا يَرْجُو مَا يُعَنَّفُ بِرَجَائِهِ، وَلا يُقْدِمُ عَلَى مَا يَخَافُ فَوْتَهُ بِالْعَجْزِ عَنْهُ.



الفصل الثاني

الإمامة الوجه الآخر للتوحيد





الخلافة في الأرض

في حي من أحياء محافظة شرق النيل بمدينة الخرطوم بحري، كان لي موعد لزيارة أحد الأصدقاء المتشيعين بعد حضوره إلى السودان من مكان عمله في الخارج في زيارة لأهله... وكنت على علم أن لبعض أقاربه المحيطين به إهتماماً بالتغيير الذي طرأ على عقيدته وأفكاره، وهم يقدرونه ويعلمون منه حسن الخلق ورجاحة العقل...

في بيته كانت لنا مباحثات وجلسات تدور حول العقيدة والفكر والثقافة، وجه أقرباء هٰذا الصديق عدة أسئلة تدور حول تشيعنا، والأدلة التي جعلتنا نتمسك بولاية أهل البيت عليهم السلام تاركين سواها... وكانت الأحاديث ـ في جلسات متفرقة ـ جيدة ومفيدة ربما نتعرض لبعضها أثناء فصول هٰذا الكتاب.. من مجموع أقرباء صديقي كان هناك شاب متأثر بالأفكار الوهابية، وقبل مقابلتي له كان ينصح بعدم مجالسة الشيعة،

ويبدي حزنه لتشيع قريبه، ولكن لمعرفته التامة بحسن أخلاق وسلوك قريبه لانت عريكته بعض الشيء وبدأ يستمع، ثم طلب منه صديقي أن نجلس سوياً للحوار والنقاش، فيأتي كل بما عنده ولنسمع وأيٌّ منا أقنع الآخر فعلى الثاني اتباعه.. وهكذا حددا موعداً للجلسة ثم أطلعاني على الأمر فوافقت فوراً، وجلسنا ذلك اليوم منذ التاسعة صباحاً حتى التاسعة ليلاً، وعلمت من صديقي بعد ذلك أن الجلسات عندهم كانت تستمر حتى منتصف الليل.

تعرفت على الأخ الوهابي في بداية الجلسة وقلت له: أنا لم آت لجدال عقيم بلا منهجية ولا أسس، كما أنني لا أبحث عن حوار لا يفضي إلى ثمرة نستفيد منها زيادة هدى أو نقصان ضلالة.. والإنسان عموماً يجب أن يبحث عن الحق والهداية وليس المهم أن ينتصر لنفسه إنما يجب أن نعمل على تجلية العقول والقلوب لرؤية الحقيقة ومن ثم الأخذ بها.

وافقني تماماً على ما قلت وأضاف أنه لم يأت للجلوس معي والحوار إلا من أجل معرفة الحق واتباعه وبتعبيره، نحن طلاب الحق أين ما كان نتبعه.

وللإنصاف أحسست بصدق حديثه كما رأيت فيه نموذجاً مختلفاً

للوهابية وبدأنا الجلسة والتي سأذكر بعضها لأنها استمرت ساعات طويلة وأيام متفرقة... ومعلوم أن الوهابيين يدعون حمل شعار التوحيد بإعتبارهم الفرقة الوحيدة التي عرفت التوحيد بحد زعمهم وتمسكت به.. طلبت من الأخ أن يسمح لي بأن أقدم للحوار بنبذة عن التوحيد حسبما فهمنا في مدرسة أهل البيت عليهم السلام .. وقبل أن أبدأ طلب مني أحد الحاضرين من أقرباء صديقي أن أبين لهم من هم الشيعة ولماذا نحن تشيعنا من دون السودانيين أجمعين ثم نتحدث عن التوحيد ،وكان في لهجته شيء من التهكم...

قلت له، لماذا تشيعنا فهذا موضوع طويل يرتبط بشرح مفصل للأدلة العقلية والنقلية وفي جلسة أخرى نستعرض ذلك، أما من هم الشيعة بإختصار، الشيعة هم أتباع أهل بيت النبي محمد صلى الله عليه وآله يقولون بإمامتهم المجعولة من قبل الله تعالى والمنصوص عليها على لسان الرسول صلى الله عليه وآله فهم يأخذون دينهم أصولاً وفروعاً من أئمة أهل البيت عليهم السلام ولا يحتاجون إلى غيرهم البتة... وفي مناسبة أخرى إن شاء الله نفصل أما فيما يخص التوحيد على نحو مختصر جداً،

نحن نقول بأن الله الواحد الأحد لا إله إلا هو الحي القيوم له الأسماء

الحسنى لا شريك له ليس كمثله شيء وهو السميع البصير ونؤمن بأن التوحيد هو أساس كل الرسالات ومنبع كل الفضائل والقيم، ولا تجوز عبادة شيء مع الله كما لا يجوز توصيفة بصفة المخلوقين وبالتالي لا يقال له أين وكيف ومتى لأنه أين الأين وكيف الكيف وخلق الزمان وكان قبل أن يكوّن الأشياء... وننزهه عن التشبيه والتعطيل وبتفصيل أكثر لا يجوز لنا القول بأن الله على السماء أو في كرسي أو أن له يد أو رجل أو يمشي كما نعتقد أنه لا يُرى لا في الدنيا ولا في الآخرة، لأن الرؤية من لوازم الجسمية والله ليس بجسم، كما أنه تعالى فوق ادراك البشر فلا يجوز توهم وتصور أبعاضه كما عند أهل السنة وتحديداً الوهابية من أنه يضحك وله يد ورجل ويتحرك فينزل من السماء السابعة إلى السماء الأولى في الثلث الأخير من الليل وهذا القول عندنا يعادل الشرك ولنا في ذلك الحجة من كتاب الله عزّ وجلّ وقول النبي صلى الله عليه وآله وحديث أئمتنا عليهم السلام ... وفصلت في الأمر فقال لي، فما رأيكم في التوسل والتبرك بالقبور؟؟؟

قلت، سنأتي لذلك.. ما رأيك أنت فيما ذكرته؟

استلم زمام النقاش أحد الجالسين وقال، شيخنا خطابك لطيف وطريقتك في التأثير رائعة ولكن نحن لا تنقصنا الخطب الرنانة نحتاج إلى

الأدلة ولنا حول حديثك الكثير من النقاش خصوصاً فيما يخص الرؤية التي نؤمن بها وهي خاصة بالمؤمنين يوم القيامة مع إيماني - والحديث للأخ - بالروايات الواردة في هٰذا الباب إلا أننا في تصوري لا نستطيع أن نتحدث عن ذات الله. إلا في حدود.. وبدأ يتحدث دون ملل حتى خرج عن الموضوع تماماً فاضطر صديقي أن يرجع دفة النقاش والحوار إلى الوهابي ليذكر رأيه فيما قلت..

فبدأ حديثه قائلاً: نحن نؤمن بالتوحيد كما جاء في الكتاب والسنة ونصف الله تعالى بما وصف به نفسه من غير تأويل كما قال بذٰلك السلف الصالح وما ذكرته من أشياء نقول نحن بها ولا تؤمنون أنتم فهي عندنا ثابتة بأحاديث رسول الله ﷺ ومشى عليها السلف.. فللّه يد كما جاء في القرآن وله رجل كما في صحيح البخاري وهو ينزل من السماء وهو على العرش استوى وفي ذٰلك نقول كما قال سلفنا الصالح (الاستواء معلوم والكيف مجهول والسؤال عنه بدعه) ولا نستعمل المجاز والتأويل في اللغة بالنسبة للقرآن الكريم وبدأنا نناقش هذه المفردات مفردة تلو الأخرى.. وكانت اهم نقطة استوعبت أغلب الوقت هي بالطبع الإمامة وإفرازات الإيمان بها، قصدت عزيزي القارئ ذكر بعض من الحوار بداية هٰذا الفصل.

لكي أثبت أن هنالك في وسط المسلمين من يؤمن بهذه الخزعبلات ويلصقها بدين الاسلام لأني كثيراً ما ناقشت أفراداً لم تصبهم لوثة الوهابية والسلفية فيستنكرون ما ذكره هٰذا الوهابي ويعتبرونه غير صحيح ويتحدثون بفطرتهم... وللأسف مثل هذه العقائد المنحرفة موجودة في كتب القوم ونحمد الله أن كتبهم لا يطلع عليها أكثر الناس بل تجربتنا اثبتت أن معظم علماء أهل السنة والجماعة بعيدون عن مصادرهم.

النقطة الأساسية التي حدث حولها الخلاف ومنها تشعبت الفرق والمشارب هي مسألة الإمامة والخلافة... والإمام الخليفة هو مصدر إلهام لمتبعية والقائلين بإمامته وبالتالي لا بد من تحديد هٰذا المفهوم ومصداقه في واقع هذه الأمة... فالخلاف الموجود بين أبناء هذه الأمة على مستوى العقيدة والفكر والفقه والثقافة إنما منطلقه هناك، لذٰلك آثرنا أن يكون بحثنا الرئيسي في هٰذا الكتاب حول الإمامة والخلافة والولاية بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، ومن ثم نعرج على مسائل أخرى نجدها في غاية الأهمية ترتبط بهذه المباحث، فالدين كل واحد يؤثر أصله في فرعه، ويرتبط الفرع بالآخر في وحدة متجانسة...

بداية أرى من الواجب علي عرض بعض ما وجدته عند الشيعة من

عقيدة، لعل القلوب تنفتح على كلمات أهل البيت عليهم السلام ، فيدخل نورها ليفصل ما بين الحق والضلالة.

التوحيد هو الكلمة الأولى والقاعدة الأساسية التي بنيت عليها كل الرسالات، فما من نبي أو رسول إلا وكانت رسالته تدعو الناس في المقام الأول إلى أن يكونوا موحدين لله نابذين للشرك، وإليك نزراً من كلمات أهل البيت عليهم السلام حول ما تقدم.

عن الإمام الباقر عليه السلام، ما من شيء أعظم ثواباً من شهادة أن لا إله إلا الله، لأن الله عزّ وجلّ لا يعدله شيء ولا يشركه في الأمر أحد [(١)].

عن محمد بن سماعة قال، سأل بعض أصحابنا الإمام الصادق عليه السلام فقال له، أخبرني أي الأعمال أفضل؟ قال، توحيدك لربك، قال، فما أعظم الذنوب؟ قال، تشبيهك لخالقك [(٢)].

عن الإمام الرضا عليه السلام عن آبائه عليهم السلام قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله، يقول الله عزّ وجلّ، لا إله إلا الله حصني فمن دخل حصني أمن من عذابي [(٣)].

(١) بحار الأنوار ج٣ ص٢.

(٢) المصدر ج٣ ص٦.

(٣) المصدر ج٣ ص٨.

جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وقال: ما رأس العلم! قال: معرفة الله حق معرفته. قال: وما حق معرفته قال: أن تعرفه بالأمثال ولا شبه، وتعرفه إلهاً واحداً خالقا قادراً وأولاً وآخراً وظاهراً وباطناً لا كفؤ له ولا مثل له، فذاك معرفة الله حق معرفته [1].

عن أمير المؤمنين علي عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: ما جزاء من أنعم الله عليه بالتوحيد إلا الجنة [2].

وهناك الكثير من الروايات والأحاديث منقولة عن أهل بيت النبوة عليهم السلام حول أهل التوحيد [3]. ولا أعتقد أن هناك فرقة إسلامية تنكر هذا المبدأ، وإلا تكون خارجة عن الدين رأساً.. لكن الإلتفاف على هذا المبدأ هو مصيبة الأمة، والجهل بتفصيلاته هو الذي يوقع بالكثيرين في حبائل الشرك وهم يظنون أنهم يحسنون صنعاً، كالوهابية التي تحمل شعار التوحيد وهي تجهله، وتصف جميع المسلمين بالشرك وهي في حبائله قد وقعت.. وما وجدته في مدرسة أهل البيت من عقيدة صافية لم تشبها شائبة

---

(١) المصدر ج٣ ص١٤.

(٢) المصدر ج٣ ص٣ .

(٣) لمزيد من الأحاديث يمكن مراجعة كتب الأخبار في مدرسة أهل البيت عليهم السلام: مثل بحار الأنوار والكافي وغيرها من الكتب.

ولم تلعب بها أهواء، زادني اطمئناناً وسكينة، ولنضرب لك مثلاً بهذه الرواية عن أمير الموحدين علي بن أبي طالب عليه السلام،

في نهج البلاغة قال عليه السلام، الحمد لله الذي لا يبلغ مدحته القائلون، ولا يحصي نعمه العادّون، ولا يؤدي حقه المجتهدون، الذي لا يدركه بعد الهمم، ولا يناله غوص الفطن، الذي ليس لصفته حد محدود ولا نعت موجود، ولا وقت معدود ولا أجل ممدود، فطر الخلائق بقدرته، ونشر الرياح برحمته، ووتّد بالصخور ميدان أرضه، أول الدين معرفته، وكمال معرفته التصديق به، وكمال التصديق به توحيده، وكمال توحيده الإخلاص له، وكمال الإخلاص له نفي الصفات عنه، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف، وشهادة كل موصوف أنه غير الصفة، فمن وصف الله سبحانه فقد قرنه، ومن قرنه فقد ثنّاه، ومن ثنّاه فقد جزّأه، ومن جزّأه، فقد جهله، ومن أشار إليه فقد حدّه، ومن حدّه فقد عدّه، ومن قال فيم فقد ضمّنه، ومن قال علام فقد أخلى منه، كائن لا عن حدث، موجود لا عن عدم، مع كل شيء لا بمقارنة، وغير كل شيء لا بمزايلة، فاعل لا بالحركات والآلة، بصير إذ لا منظور إليه من خلقه، متوحد إذ لا سكن يستأنس به ولا يستوحش لفقده، أنشأ الخلق إنشاء وابتدأه ابتداء، بلا روية أجالها ولا

تجربة استفادها، ولا حركة أحدثها ولا همامة نفس اضطرب فيها، أجّل الأشياء لأوقاتها، ولاءم بين مختلفاتها، وغرز غرائزها، وألزمها أشباحها، عالماً بها قبل ابتدائها، محيطاً بحدودها وانتهائها، عارفاً بقرائنها وأحنائها.

كان من المفترض أن يكون هٰذا الباب مخصصاً لمواصلة الحديث عن التوحيد كما وجدته في مدرسة الوحي، وكما عرفته في كلمات أهل البيت عليهم السلام، لأبين عمق الفارق بين التشيع وغيره من المذاهب والملل رغم الإتفاق في الخطوط العريضة، إلا أنني أجد نفسي ملزماً بالرجوع إلى نقطة الخلاف الأصلية، التي مزقت الأمة بسبب الأهواء والشهوات، وهي الإمامة والخلافة والولاية من بعد النبي صلى الله عليه وآله، وذلك للأسباب التالية:

١. إن الاختلاف في تفصيلات مسألة التوحيد جاء نتيجة الاختلاف في تحديد المصادر التي ينبغي الرجوع إليها لتعيننا حتى نلج في هذه المسائل، وما أقصده بالمصادر ليست الكتب والأسفار، إنما الأشخاص الذين تتمثل فيهم المرجعية الدينية (الرسالية) التي يُركن إليها.

٢. إن الحديث حول تشعبات أصل التوحيد يحتاج إلى أسفار مطوّلة، وقد بُحثت من قبل علماء الشيعة في كثير من الكتب يمكن للباحث الرجوع إليها، خصوصاً تلك المفاهيم المشوهة التي بالغ في تشويهها

السلفيون، مثل قضية التجسيم، ومفهوم الشرك الذي آذوا به كل المسلمين، واعتبروهم متلبسين به في قضية التوسل بالأولياء وتعظيم مقاماتهم، إضافة لمواضيع أخرى كمسألة الرؤية، والتي عالجها المستبصر السوداني الشيخ معتصم سيد أحمد في كتابه «الحقيقة الضائعة».

٣. سنعالج بعضاً من هذه المسائل في كتاب مستقل بإذن الله تعالى، ولن نغفل عن الإشارة لبعض هذه المسائل من خلال استعراضنا لنزر يسير من روايات أهل البيت عليهم السلام في نهاية هذا الكتاب.

ورغم ذلك تجدني عند الحديث عن الإمامة والخلافة لابد أن لا تنفك بدايتي عن التوحيد، والقارئ اللبيب يدرك ذلك، لأن التحليق فوق أفق الإمامة يحتاج إلى قاعدة انطلاق متينة تفرضها علينا الوحدة الموضوعية للبحث...

كنت أحاور أحدهم فسألته عن أبرز تجليات التوحيد في واقعنا العملي ما هو؟ قال لي: العبادة واتباع الأوامر والانتهاء عما نهانا عنه المولى عزّ وجلّ، قلت له: هذا صحيح، ولكن يأتي قبل ذلك التسليم لمن ينصبه الله عزّ وجلّ سفيراً لنا وهو الرسول بإجماع المسلمين، ولذلك لا تكتمل الشهادة إلا بذكر نبينا الأعظم والشهادة له بالرسالة، لأن كلمة «لا إله إلا الله»

نظرية واقعها العملي الإيمان والتسليم لمن يعبر عن إرادة الله تعالى في الأرض، وهٰذا هو التطبيق العملي للتوحيد في واقع الحياة.. ثم واصلت قائلاً: والتوحيد أهم الأصول في الدين الإسلامي التي بني عليها صرح هٰذا الدين القيم، وهو عنوان قبول الأعمال، ومطلوب من الناس إلى يوم القيامة في زمن النبي ﷺ وبعد وفاته. قال لي: ماذا تقصد؟!.

قلت له: التوحيد في واقعه العملي (التطبيقي) كما يتمثل في التسليم للرسول (المعبر عن إرادة الله تعالى)، لا بد له من امتداد، لأنه مدار اختبار الناس وابتلائهم، وعنوان صدق إيمانهم، ... ونحن الشيعة نرى هٰذا الإمتداد متوفراً وإلى يوم القيامة (كما تقتضيه فلسفة التوحيد) ويتمثل في أهل البيت عليهم السلام ..

وأنت عزيزي القارئ تأمل معي ما سأتناوله في البحث التالي حتى يتبين الحق ولك الحكم.

بدءاً لابد من التأكيد على أن للتوحيد انعكاساً جدياً وحقيقياً على تنظيم كافة جوانب حياتنا في هذه الأرض (الجانب السياسي - الاجتماعي... الاقتصادي... الخ)، فالله تعالى الملك العزيز الجبار العليم له الأسماء الحسنى أمرنا بتوحيده رحمة بنا لبناء حياة سعيدة في الدنيا وفوز عظيم في

الآخرة، وأسماؤه الحسنى تتجلى في سننه الحاكمة على هٰذا الكون تنظيماً وترتيباً وحفظاً وخلقاً جديداً يوماً بيوم بل لحظة بلحظة.. والإنسان ضمن هٰذا الخلق تحكمه سنن الله وقوانينه، لكن كما أنه محكوم بسنن وقوانين لا يمكنه الخروج عنها، شاء المولى عزّ وجلّ أن يترك له مساحة من الحرية هي محل الاختبار والابتلاء ليعلم الذين صدقوا من الكاذبين، فالكون بكل مكوناته باستثناء الإنسان تتجلى فيه حاكمية الله تعالى وتسييره وفق القوانين والسنن القائمة بالله تعالى...

يبقى السؤال كيف تتحقق حاكمية الله تعالى على البشر فيما يخص الجانب الذي يمتحنون فيه؟ فالله تعالى خلو من خلقه والخلق خلو منه، بمعنى أن هناك بينونة ذاتيه بين الخالق والمخلوق، وبتوضيح أكثر: إن الإنسان لا يمكنه أن يباشر الله ويباشره ـ فلا يمكن أن تكون قيادة الله للناس وولايته وحاكميته عليهم (وبالتالي تجلي توحيده تعالى وانعكاسه على حياة الناس) إلا عن طريق خليفة وسفير، في اتباع البشر له انسجام بين مسيرتهم الحضارية وسنن الله تعالى التكوينية، وتكون لهٰذا الخليفة ولاية اعتبارية بإذن الله تعالى، تخول له حكم الناس وتطبيق قيم السماء فيهم والمحافظة عليها والدفاع ونفي التحريفات عنها.. وبمعنى أدق (التعبير عن

إرادة الله تعالى وحاكميته)[1] ، إنسان له هذه الأهمية لا بد من توفر مواصفات ومؤهلات غير عادية في شخصه، فلا يكون تحديده واختياره إلا من قبل الله السميع العليم.. ألا ترى ذلك واضحاً في اختيار الأنبياء والرسل؟ كذلك الأمر في الإمامة والخلافة التي لا بد وأن تمتد بامتداد هذه الحياة، وبامتداد الحاجة إلى التوحيد ومطلوبيته على كل حال، ولتأكيد هذه الحقائق آنفة الذكر، سنتناول فيما يأتي:

- مفهوم خلافة الله في الأرض.
- الإمامة وضرورتها.
- الاصطفاء والاختيار الإلهي.
- النبي صلى الله عليه وآله وأهل البيت عليهم السلام امتداد الولاية الإلهية.

مفهوم الخلافة

قال الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ(٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ

---

(١) يقول تعالى إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ .

عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاء هَـؤُلاء إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ(٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ(٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ(٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة/ ٣٠ـ ٣٤.

الآيات المباركة من سورة البقرة تتحدث عن خلق أبي البشر يعني بداية الحياة الإنسانية، حينها أخبر المولى عزّ وجلّ الملائكة بأنه جاعل في الأرض خليفة. وكلمة خليفة أوضح معنى من أن نحاول السباحة في بحر بحث لغوي عن مدلولاتها... فهناك الله الخالق، كما أن لهٰذا الخالق مخلوقات (الملائكة والكون)، وأراد المولى المالك عزّ وجلّ جعل خليفة في الأرض، وهو (آدم) كما هو واضح...

قد نستظهر من هٰذا الجزء في الآية خلافة الإنسان بشكل عام في هذه الأرض، لكن سرعان ما نكتشف أن الخلافة المقصودة في هذه الآية ليست الخلافة العامة، بل هي خلافة من نوع خاص، وذٰلك ما أشرنا إليه في بداية هٰذا البحث (الخليفة المعبر عن إرادة الله) .. ودليلنا على ذٰلك ما ورد في

نفس الآيات من اعتراض الملائكة على احتمال الفساد في الأرض وسفك الدماء، وهو احتمال وارد بل ومؤكد أنه سيقع من البشر (الإنسان الخليفة الخلافة العامة)، ونحن نراه كل يوم في حياتنا يفعل ذلك وأكثر... لكن التوضيح الذي ورد عن المولى عزّ وجلّ للملائكة يبين أن المقصود من مفهوم الخليفة هنا الخلافة الخاصة، وذلك في قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾ ثم تبين الآية الخصوصية في قوله تعالى: ﴿وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ دليل العناية الخاصة بهٰذا الخليفة المعلّم بعلم الله بلا واسطة ليفوق الملائكة فلم تستطع أن تتنبأ بالأسماء، وأراد المولى عزّ وجلّ أن يلفت انتباههم إلى علو شأن هٰذا الخليفة وأهميته لمستقبل حياة الكون، فطلب من آدم أن ينبئهم بالأسماء فلما أنبأهم، ذكّر الله تعالى الملائكة بأنه يعلم غيب السمٰوات والأرض، مما يعني دقة الاختيار للخليفة والقدرة على خلق نماذج خلاف التي تبادرت للملائكة لا تفسد في الأرض ولا تسفك الدماء بل تسبح لله وتقدسه كما أدعت الملائكة لنفسها وفوق ذلك تعلم من الله ما لا يعلمون، مما يجعلها السبب في الحفاظ على الأرض بامتداد عمرها، ولمزيد من توضيح هذه العناية الخاصة من قبل الله تعالى بهٰذا الخليفة (المعبر عن إرادة الله في الأرض) أمر الملائكة التي تسبح بحمده وتقدس

له أن تسجد له، وهو الامتحان الذي سقط فيه إبليس فأصبح ملعوناً مطروداً من رحمة الله...

وفي قصة إبليس إشارة واضحة إلى أن الانصياع والتسليم لهٰذا الخليفة هو الواقع العملي لتوحيد الله عزّ وجلّ، إذ إنه(إبليس) كان من الجن كما يذكر القرآن الكريم وكان عابداً فخوطب مع الملائكة، ولكنه رفض السجود لآدم رغم أنه يؤمن بأن الله هو الرب الخالق القادر بيده الموت والحياة، كما أنه كان يؤمن باليوم الآخر (وذلك ما نستظهره من خلال آيات الذكر الحكيم التي ذكرت قصة عصيانه لأوامر الله تعالى)، كل ذلك لم يشفع له من أن يكون مذموماً مدحوراً.

كان آدم أول خليفة لله بالمعنى الخاص في الأرض، فكان لا بد من أن يكون نبياً، وكذلك كل الأنبياء والرسل والأوصياء الذين يحكمون في الأرض بحكم الله منفذين شرعه بدقة متناهية محافظين على دينه بإخلاص، وخلاصة القول نجملها في الآتي:

إن للخلافة في الأرض معنيين:

المعنى الأول

(خلافة عامة) وهي خلافة الإنسان في الأرض، وبتقريب أكثر فإن الله

تعالى خلق الإنسان في هذه الحياة ليسير وفق التشريعات والسنن، فلا يفسد في الأرض بعد إصلاحها، ويتبع أوامر الله ونواهيه بإرادة تشريعية، فالخالق جل وعلا خلق السموات والأرض بالحق، وأصلحها وهيأها كأفضل ما يكون رحمة للجنس البشري، ولما كان الإنسان ظلوماً جهولاً آتاه هدىً من عنده وقال، ﴿فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلاَ خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلاَ هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ حينها ـ أي حين يتبع الهدى المرسل بواسطة الرسول ـ ينسجم مع الكون ويكون محققاً لمراد الشارع، وبالتالي ناجحاً في الامتحان والاختبار، ويعيش في الحياة كما يريده المولى.. فالمؤمنون خلفاء في الأرض بعد نجاحهم وليس قبل ذلك، وخلافتهم اعتبارية بتوسط إرادة تشريعية، (وهي عبارة عن إلتزام وتنفيذ القوانين والأحكام الشرعية المنزلة) كما أنها خلافة جمعية (مجموع الناس) ولم تذكر في القرآن إلا بصيغة الجمع، بخلاف الخلافة الخاصة التي وردت بصيغة المفرد (خليفة)، أما آيات خلافة الناس فمثالها قوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلاَئِفَ فِي الأرض فَمَن كَفَرَ فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ﴾ [1] وواضح من الآية أن هذه الخلافة ليست ذات الخلافة التي أخبر المولى عزّ وجلّ الملائكة عنها عند خلقه لآدم عليه السلام ، بدليل احتمال كفر البعض من هؤلاء وهو المحذور الذي

---

(١) فاطر / ٣٩ كما وردت بصيغة الجمع في الآيات: ١٦٥/الأنعام . ١٤/يونس . ١٧٣/يونس . ٦٩/الأعراف ٧٤/الأعراف . ٦٢/النمل.

نظرت إليه الملائكة كما أسلفنا.

المعنى الثاني

(الخلافة الخاصة) المرتبطة بعناية الله واختياره واصطفائه واجتبائه ومحطة الاختبار الأولى لخلقه، ولقد وردت كلمة (خليفة) بهذا المعنى في موردين في القرآن الكريم.. الأول عند خلق آدم عليه السلام كما ذكرنا، والثاني قوله تعالى: ﴿يا داودُ إنّا جعلناكَ خليفةً في الأرض فاحكُمْ بَيْنَ النّاسِ بالْحَقّ﴾[1] ،ومن هذه الآية نستظهر بعض التفصيل فيما ذكرناه عن الخلافة الخاصة، وهي (الحكم بين الناس) أو الحاكمية على الناس بإذن الله، بمعنى خلافة الله والحكم بقيمه بين الناس، والأصل ﴿إنِ الْحُكْمُ إلاّ للّه﴾ ولكن الله شاءت حكمته أن يختار بعلمه هذا الخليفة لتكون له الولاية على الناس، وهذا بخلاف المعنى العام للخلافة الذي تناولناه سابقاً، ويدعم فكرتنا أن الله جعله خليفة على الناس بالرغم من وجودهم كجنس بشري الا أن الخليفة كان واحداً منهم وليس كلهم وهو داؤود. وهذا المفهوم للخلافة يختزن قاعدتين رئيسيتين:

الأولى: أن جعلها واختيارها بيد الله عزّ وجلّ، فهي تحتاج إلى عناية خاصة لأنها حاكمة في الأرض بإذن الله، وبالتالي معبرة عن إرادته تعالى

---

(١) ص/ ٢٦.

لقيادة الناس وفق مراده والولاية عليهم، وذلك قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ﴾ فالولاية لله تعالى على الخلق أولاً وبالذات، ثم بجعله تعالى وبإذنه للرسول، ثم للذين آمنوا، وللألمعي أن يلتفت إلى أن الصيغة التي جاءت بها كلمة ﴿وَلِيُّكُمُ﴾ مفرد إلا أنها شملت الرسول والذين آمنوا، وهذا هو معنى قولنا أن الولاية لله أولاً وبالذات، (لكونه الرب المالك الخالق العالم) ومن ثم للرسول ولثلة خاصة من الناس،لا بد لمثل هذا الخليفة أن يجسد الحق كاملاً دون نقصان ولا زيادة، مما يتطلب إرادة إلهية (تكوينية) تسدده وتؤيده، ومن هنا كانت ضرورة أن يكون هذا الخليفة باختيار واصطفاء إلهيين.

الثانية: أن هذا الخليفة المصطفى هو من البشر وليس من الملائكة، كما أنه ليس نصف آله، بل ذاته هي ذات الإنسان كما خلقه الله تعالى، فهو مخلوق مربوب يدعو الناس لله ويعبر عن رسالته، فهو سفير وخليفة مؤتمن على وحي الله، يقول تعالى: ﴿مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ اللَّهُ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَاداً لِّي مِن دُونِ اللَّهِ﴾ آل عمران/ ٧٩ وهؤلاء البشر المنتجبون لم يكن اختيارهم اعتباطياً بل لأن لديهم الاستعداد الكامل في التسليم (الإرادة التشريعية)، فاختبرهم الله ووجدهم أهلاً لتحمل أمر رسالته والحفاظ عليها والعمل على الحكم بمضامينها في

كافة ميادين الحياة وتشعباتها، فأيدهم بالعصمة وأعطاهم الكتاب والحكم (الحكمة).

بقي علينا أن نذكر ببعض الحقائق حتى تتضح معالم هٰذا البحث.

- إن خليفة الله وحجته على خلقه في كل زمان لا بد من توفر شيئين رئيسيين لديه:

أ.العلم والإحاطة بأوامر الله ونواهيه وتفاصيل رسالته للناس، ويطلق عليه القرآن تارة الكتاب ومرة الرسالة وثالثة الوحي والأخرى العلم... الخ.

ب.العمل بهٰذا العلم ووفق هداه بدقة متناهية.. بتعبير أدق (العصمة) بمعنى عدم الانحراف ولو بمقدار شعرة عن تعليمات الله الرسالية حتى تتحقق الحجية على الناس.

بعد توفر هذين العنصرين يكون هو الحاكم والولي حتى ولو لم يسلّم له الناس ويتبعونه (وغالباً هم كذٰلك)، وهٰذا هو عمق فلسفة ابتلاء الناس بقيادة بشر مثلهم ﴿فَقَالُوٓاْ أَبَشَرٌ يَهْدُونَنَا فَكَفَرُواْ وَتَوَلَّواْ وَّاسْتَغْنَى اللَّهُ وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾[1].

إن التسليم لهٰذا الخليفة وموالاته وطاعة أوامره هي جوهر التوحيد

---

(١) التغابن/ ٦.

وحقيقة الإيمان وعنوان التسليم لله تعالى، وإليك بعض الآيات كبيان لهـذه الحقيقة:

﴿قُلْ إن كُنتُمْ تُحِبّونَ اللّهَ فَاتبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللّهُ﴾ آل عمران/ ٣١.

﴿وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِن قَبْلُ يا يَقَوْمِ إنّمَا فُتِنتُمْ بِهِ وَإنّ رَبّكُمُ الـرحْمنُ فَاتبِعُونِي وَأَطِيعُواْ أَمْرِي﴾ طه/ ٩٠.

﴿أَفَمَن يَهْدِي إِلَى الْحَقّ أَحَقّ أَن يُتّبَعَ أَمّن لاّ يَهِدّيَ إِلاّ أَن يُهْدَى فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ يونس/ ٣٥.

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رّسُولٍ الاّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللّهِ﴾ النساء/ ٦٤.

﴿يَا أَيّهَا الّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرّسُولَ وَأُوْلِي الأمْرِ مِنْكُمْ﴾ النساء/ ٥٩.

خليفة الله هو الإمام على الناس

تمهيد

ولمزيد من الإيضاح الضروري للخوض فيما نحن بصدده.. تعال نتدبر بعمق في هذه الآيات:

١. ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رّسُولٍ إِلاّ نُوحِي إِلَيْهِ أَنّهُ لاَإِلَهَ إِلاّ أَنَا

فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء/ ٢٥.

٢. ﴿إِنَّ هذهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاعْبُدُونِ﴾ الأنبياء/ ٩٢.

٣. ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾ البينة/ ٥.

٤. ﴿وَمَن يُطِعِ اللّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَذَلِك الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ النساء/ ١٢.

٥. ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ القصص/ ٦٨.

إن للرسل كلمة واحدة جاؤوا ليبلغوها للناس مهما فصل بينهم الزمن واختلفت الأوضاع التي لابستهم، إنها ﴿لا إله إلا أنا﴾ هذا في مجال العقيدة ﴿فاعبدون﴾ في مجال الشريعة، إنها فاعلية في النفس بالحب والخضوع، ونهج في الحياة يتبعه البشر فيسعدون، إن الآية تذكر بحقيقة ما أكبرها وما أغفلَ الناس عنها، وهي أنه ما دام الإله واحداً فلا بد من أن تكون السيادة واحدة والعبادة واحدة والطاعة واحدة، فلا يجوز الخضوع لسيادة أحد ولا اتباع أحد في أي زمان إلا بإذن الله تعالى، والآية الثانية تؤكد ما ذهبنا إليه وكذلك الثالثة.

فإذا كانت الولاية لله، وكانت السيادة القانونية والحاكمية المطلقة له سبحانه، فلم يجز للبشر ـ الذي لا يملك ولاية على نفسه ولا سيادة ولا

حاكمية ـ أن يشرع قانوناً أو ينصب نفسه أو ينتخب غيره ولياً حاكماً إلا بإذن الله الولي والسيد الحقيقي... إذ إن المؤمن لا بد من أن يشعر في نفسه بعبودية خالصة لله تعالى، شاملة لجميع أبعاد حياته محيطة بكل جوانبها، وما التشريع والسيادة والحكم إلا بعض أبعاد الحياة.

ومن هنا يتحتم اتباع الرسول، لأن اتباعه هو اتباع الرسالة، وتحقيق سيادة الدين التي هي سيادة الله وحاكميته، كما تشير إلى ذلك الآية الرابعة... أما الآية الأخيرة فنترك الحديث عنها مفصلاً لما سيأتي من بحث.

ما سبق كان تمهيداً ضرورياً لما سيأتي في البحث عن الإمامة في الشريعة الاسلامية، كمنصب إلهي لا يمكن أن يكون بأي حال عن غير طريق التعيين والاصطفاء من قبل الله تعالى، والحديث عن خلافة الله في الأرض ينطبق تماماً على مسألة الإمامة، فعندما يختار الله بشراً ليكون حاكماً بدينه بين الناس يكون خليفة بإذنه.. وعندما يطلب المولى عزّ وجلّ من الناس اتباعه والانقياد له يكون إمامهم، وسنعالج فيما يلي مسألة الإمامة بشكل عام ونؤصّل لها من خلال التدبر في آيات الذكر الحكيم، ثم نبحث نفس المسألة بالنسبة للأمة الإسلامية بصفة خاصة، خصوصاً وأن قضية الإمامة والخلافة بعد الرسول صلى الله عليه وآله كانت السبب الرئيسي وراء الفتن

والأزمات التي عصفت بوحدة الأمة وفرقتها طرائق قدداً.

الإمامة مبدأ عام

إبراهيم عليه السلام والإمامة

يقول تعالى: ﴿وَإِذِ ابْتَلَى إبراهيم رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَاماً قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لاَ يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾[1]، بالتأمل في هذه الآية المباركة نستكشف عدة حقائق أرجو من القارئ العزيز أن يستصحبها مع ما سبق بيانه إلى آخر كتابنا هذا.

- إن الإمامة منصب عظيم وجليل لا يؤتى لإنسان ما اعتباطاً، إنما بعد التمحيص والابتلاء من لدن صاحب الخبرة الخالق السميع العليم.

- الإمامة منصبُ جعلٍ مباشرٍ للمولى عزّ وجلّ لا دخل للعباد فيه.

- كما أن مرتبة الإمامة ليست فقط علاقة خاصة بين الله تعالى والشخص المصطفى، بل هي لقيادة الناس والحكم بينهم، فهو للناس إمام.

- وهي عهد من الله لا يعطى إلا لمن توفرت فيه مواصفات معينة ﴿لاَ

---

(١) البقرة/ ١٢٤.

يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ والظلم عنوان عريض يحتمل كل أنواع الذنوب والآثام والسلوك المنحرف.

يقول تعالى: ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أئمة يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَأَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَإِقَامَ الصَّلَاةِ وَإِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَكَانُوا لَنَا عَابِدِينَ﴾[1].

ويقول ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أئمة يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾[2].

وهكذا ترى آيات الوحي الواحدة تلو الأخرى، لتذكرنا أن القيمومة على الهداية بأمر الله لا تكون إلا من إمام مجعولٍ من قبله تعالى.. أو تعلم لماذا؟! لخطورة المسؤولية وحساسية المهمة، فهي تستبطن الحفاظ على الكتاب (العلم)، والحاكمية (تطبيق الكتاب)، وقد يكون هٰذا الإمام نبياً أو رسولاً أو فقط إماماً يحافظ على خط سير رسالة، وهٰذا هو عين معتقد الشيعة، إذ ترى في خلافة الرسول الأكرم ﷺ الذي ارتحل عن الدنيا بعد أن بلّغ رسالة الله وبالغ في النصيحة، ضرورة وجود إمام بالمواصفات التي أشرنا إليها سابقاً ونفصل فيها لاحقاً، مواصفات لا تتوفر إلا بعناية خاصة،

(١) الأنبياء/ ٧٣.

(٢) السجدة/ ٢٤.

ولا تكتشف إلا بعين الخالق البارئ العليم الحكيم. وبلا شك لن تنتظر السماء شورى أو انتخابات قد تأتي بمن يفسد في الأرض ويسفك الدماء، ثم تقول للناس هٰذا إمام الحق وخليفتي عليكم!!

لقد صدع بها الوحي مجلجلاً ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾[1] ، فلماذا التعنت والتلكؤ الذي يقود للشرك بالله؟ إن كنا نريد شرع الله وسنته فهي بينة ثابتة لا تتغير ولا تتبدل، ذكّر بها الوحي وفصّل أمورها النبي الأكرم ﷺ ... فإن كان قانون الاصطفاء والاجتباء سنة فيما مضى من أمم فهذه الأمة ليست بدعاً من الأمم ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ سُنَّةَ الأَوَّلِينَ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَحْوِيلاً﴾[2] ، ولقد شاء الله في سنته أن يكون له خليفة في الأرض، كما شاء تعالى أن يختار ويصطفي من يشاء، يقول تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبراهيم وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ (٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[3].

ويقول تعالى: ﴿قَالَ يَٰمُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالاَتِي وَبِكَلاَمِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُنْ مِّنَ الشَّاكِرِينَ﴾ الأعراف/ آية ١٤٤.

---

(١) ٦٨/القصص.

(٢) فاطر/ ٤٣.

(٣) آل عمران/ ٣٣ ـ ٣٤.

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فاطر/ آية ٣٢.

﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ الحج/ آية ٧٥.

﴿وَكَذَلِكَ يَجْتَبِيكَ رَبُّكَ وَيُعَلِّمُكَ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ وَيُتِمُّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَعَلَى آلِ يَعْقُوبَ كَمَا أَتَمَّهَا عَلَى أَبَوَيْكَ مِن قَبْلُ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبَّكَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ يوسف/ آية ٦.

ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكاً قَالُوَاْ أَنَّى يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[1].

ما أوضح بيان الوحي، إنه قرآن عربي لقوم يعقلون، فقصة طالوت نستفيد منها التالي:

- تأكيد سنة الاصطفاء والاجتباء للأنبياء ولغير الأنبياء، لأن طالوت كان

---

(١) البقرة/ ٢٤٧.

ملكاً معيناً من نبيهم .. يعني حاكماً، والنبي لم يختاره عشوائياً ولم يفوّض لهم الأمر بل الله هو الذي اصطفاه عليهم وزاده علماً وقوة.

ـ الحكم والملك بيد الله يؤتيه من يشاء من عباده، وعلى الآخرين التسليم.

أقول: إن الاصطفاء والاجتباء مقرون بالنبوة (الرسالة) والكتاب والحكم، وموضوع حديثنا خلافة النبي ﷺ بلا شك تدخل ضمن هٰذا العنوان.. بل خلافة رسول الله ﷺ وإمامة المسلمين وتجديد الإنسان المنوطة به هي أكثر حاجة للاصطفاء والاجتباء، وذٰلك لسببين رئيسيين:

الأول: إن رسولنا الأكرم ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين، إذ لا نبي بعده، والأرض تحتاج إلى خليفة، واحتمال وجود نبي آخر ليقوّم الناس احتمال غير وارد.

الثاني: إن العلم والكتاب (الرسالة الاسلامية) الذي توارثه الأنبياء وحملوا أمانته طوال التاريخ من لدن آدم وإلى زمان نبينا الأعظم ﷺ لا شك يحتاج إلى إمام ذي مواصفات خاصة وبرعاية إلٰهية خاصة (جعل واصطفاء) يحافظ عليها ويدافع عنها ويحفظها من التحريف، لأن المفترض أن تستمر سيادة هٰذا الدين إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

وأولى الناس ليكونوا أئمة وخلفاء بعد النبي ﷺ هم أهل بيته.. لقد اصطفى الله تعالى آل بعض الأنبياء، فلماذا لا يصطفي آل أفضل الأنبياء ويورثهم الكتاب والحكمة؟ بعض المتفلسفين يستنكر قول الشيعة بإمامة أهل بيت النبي بحجة أن ذلك أشبه بنظام المملكات، وإن نظام التوارث مبدأ مرفوض ولا يليق بأمر الرسالات، وكأنهم لم يقرؤوا قوله تعالى،

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ كُلاًّ هَدَيْنَا وَنُوحاً هَدَيْنَا مِن قَبْلُ وَمِن ذُرِّيَّتِهِ دَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَمُوسَى وَهَارُونَ وَكَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ﴾ (الأنعام/ ٨٤)

﴿وَوَهَبْنَا لَهُ إِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِ النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ وَآتَيْنَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (العنكبوت/ ٢٧)، ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحاً وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ (الحديد/ ٢٦)، ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (آل عمران/ ٣٤).

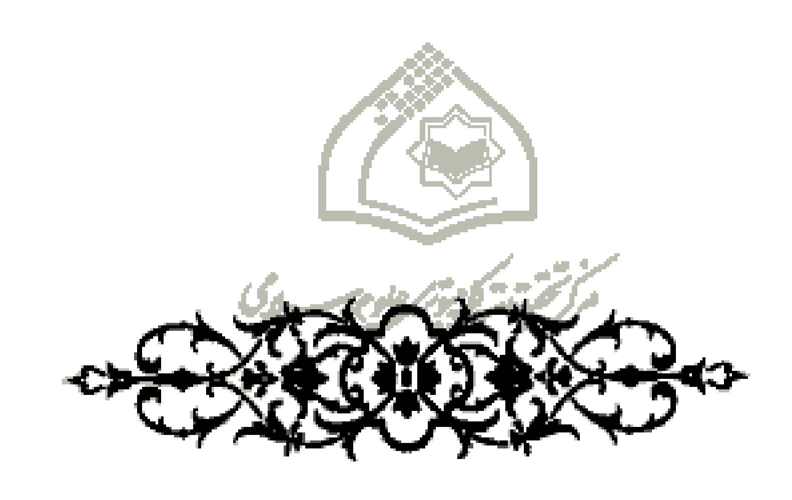
والآية الأخيرة توضح فكرتنا أكثر، لقد اصطفى الله من قبل آل إبراهيم وآل عمران بل ويؤكد القرآن ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾.

أما التوارث فلقد ورث سليمان داود، بل أكثر الأنبياء سلسلة متصلة كما

هو واضح في الآيات السابقة، الا ترى أن نبي الله إبراهيم عليه السلام عندما جُعل إماماً تمناها في ذريته فلم يزجره المولى عزّ وجلّ ولم يرفض المبدأ، ولكن وضع له قيوداً، فلا أدري من أين يأتي البعض بمقاييس ما أنزل الله بها من سلطان.. لقد طلب موسى أن يختار الله له وزيراً من أهله فاستجاب الله تعالى لطلبه وآزره بأخيه هارون ﴿وَاجْعَل لّي وَزِيراً مّنْ أهلي﴾ (٢٩/ طه) .. ألا يحتاج الإسلام لإهتمام كما هو شأن سائر الرسالات؟! إلا يستحق النبي الأعظم صلى الله عليه وآله أن تكون ذريته محل عناية واصطفاء الله عزّ وجلّ؟! لقد اصطفى الله آل عمران وآل إبراهيم، وقضت حكمته أن يختار آل محمد ليكونوا ولاة أمرنا، ولكن كان هناك أناس يحسدون آل محمد على ما آتاهم الله من فضله... لنتأمل الآية المباركة ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىَ مَآ آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مّلْكاً عَظِيماً﴾ (النساء/ ٥٤) وهي تأتي ضمن سياق يتحدث عن الملك وولاية الأمر، وتتحدث عن حسد البعض لأناس آتاهم الله كما آتى آل إبراهيم (الكتاب والحكمة والملك العظيم) أدوات الإمامة... إنهم آل محمد .. فهم من يلي الأمر بعد الرسول صلى الله عليه وآله، لأنهم ذريته وعترته أهل بيته.

دعنا نفصل في الأمر أكثر، ونرى حديث الوحي عن أهل

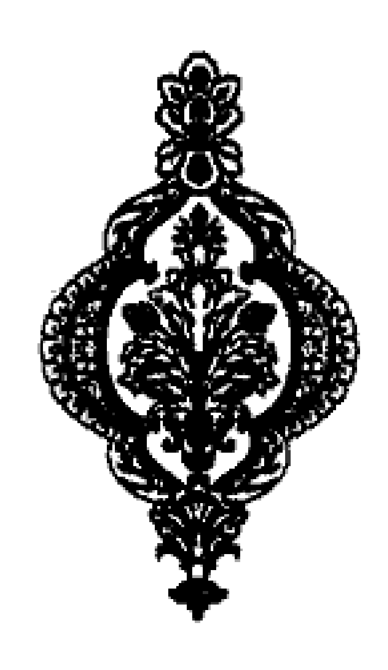
البيت عليهم السلام والخريطة التي رسمها لنا المولى عزّ وجلّ للسير في خط الرسالة بعد انتقال الرسول إلى الرفيق الأعلى، ونرى هل النبي محمد صلى الله عليه وآله أوحى لنا بشيء بخصوص أهل بيته وعترته؟!



الفصل الثالث

الخلافة بعد النبي صلى الله عليه وآله






مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

خطوط عامة لخلافة النبي صلى الله عليه وآله

الآية الأولى

﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ فاطر/ ٣٢.

جاءت الآية في سياق حديث عن رسالة نبي هذه الأمة، فكل سورة فاطر تقريباً تتحدث عن النبي صلى الله عليه وآله ورسالته الخاتمة، تذكّره بأن الأنبياء الذين سبقوه أيضاً كُذِّبوا، وأن الله تعالى أرسله بالحق بشيراً ونذيراً، وفي كل أمة لا بد من نذير، وتواصل الآيات في السورة لتؤكد أن الذي أوحي إليه من ذلك الكتاب الذي توارث من علمه الأنبياء والرسل وكل خلفائه تعالى في الأرض، ثم يقول تعالى، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ وكما هو واضح أن هذه الوراثة لمصطفين بعد النبي الأكرم صلى الله عليه وآله وهم من الناس.. ويؤكد المولى عزّ وجلّ ضرورة الاصطفاء إذ يبين أن هناك ممن هم

ضمن العباد ظالم لنفسه ومقتصد وآخر سابق بالخيرات بإذن الله، وهٰؤلاء لا يعرف خبايا أنفسهم إلا الله، لذٰلك كان الاصطفاء رحمة من الله وفضلاً كبيراً هكذا نفهم الآية المباركة...

الآية الثانية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً﴾ النساء/ ٥٩.

الآية المباركة تتحدث عن الطاعة لله والطاعة لرسوله وولاة الأمر (من بعده)، هٰذا الأمر بالطاعة بصفة مطلقة كطاعة رسول الله يفرض علينا أن نسأل: من هم هٰؤلاء؟ وما هي المواصفات التي يتحلون بها؟ وما هو الشيء الذي يملكونه ليكونوا موضعاً لحمل هذه الأمانة العظمى؟

لقد عالجت في كتابي السابق (بنور فاطمة اهتديت) هذه الآية، وقلت أنها تبين حقيقة عصمة ولاة الأمر، بسبب الأمر الجازم من المولى عزّ وجلّ بوجوب طاعتهم كطاعة رسول الله ﷺ، مما يقربنا من مفهوم خلافة الله في الأرض (التوحيد في واقعنا العملي والتعبير عن إرادة الله تعالى)، ولا بد أن يكون هٰذا المأمور بطاعته في مقام يشرف على استمرار الرسالة والتي

بسببها أُمرنا بطاعة الرسول ﷺ ، والرسالة هي الكتاب والحكمة والملك، وهذه الأشياء بيد الله يؤتيها ويصطفي لوراثتها من يشاء، فلا بد من أن يكون ولاة الأمر هؤلاء هم المعنيون بقوله تعالى، ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾، ويؤكد هذا المعنى أن الآية (٥٤) من نفس السورة قوله تعالى ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَىٰ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ تتحدث عن أناس في هذه الأمة أناس محسودين لأن الله آتاهم من فضله كما آتى آل إبراهيم الكتاب والحكمة والملك العظيم... هذه الإشارة اللطيفة من القرآن والمعنى المبين الذي يردد مضامينه كل المسلمين في صلواتهم، البعض بفهم والآخر بلا فهم، إنها الصلاة الإبراهيمية (اللّهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم)، لقد فسرت هذه الصلوات المقصود من كلمة الناس الواردة في الآية، إنهم آل محمد، فلماذا يمنع عنهم فضل فضلهم الله تعالى به؟ وآل محمد ليسوا بدعاً، لقد أوتي آل إبراهيم من قبل هذا الفضل، إنها ذكرى لقوم يعقلون.

الآية الثالثة

﴿ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ

الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾ المائدة/ الآية ٥٥.

إننا نقترب شيئاً فشيئاً من بيت القصيد، فالآية المباركة أشرنا إليها من قبل عندما تناولنا ولاية الله وخلافته في الأرض، والآن ننظر إليها وإلى مصاديقها في واقع أمتنا الإسلامية، التي تتفق على ولاية الرسول ﷺ وتختلف على الذي يخلفه، والآية تحدد أن الولاية كما هي للرسول هي للذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون...

جرى نقاش وجدل طويل حول مفاهيم هذه الآية، ومعنى كلمة الولي التي حاول البعض إبعادها عن المعنى المقصود للولاية، إلى معنى لا يتفق ولا يستقيم وسياق الآيات، ومن أراد التفصيل فعليه الرجوع إلى الكتب التي تناولت هذه الآية، ما يهمنا في بحثنا، من هو المقصود بقوله تعالى ﴿... والذين آمنوا.. ﴾، لقد نزلت الآية بين أظهر أناس يعلمون تماماً فيمن نزلت، ونحن في كل أسباب نزول القرآن الكريم نرجع إلى كتب التفسير والحديث والتاريخ، لنطوي السنوات التي تفصلنا عن زمن نزول الوحي فيتصل يومنا بذلك العصر، وهي الطريقة الوحيدة لنعيش مع آيات الذكر ونسعى لتطبيقها في واقعنا... فما هو سبب نزول آية الولاية؟ ومن هو الولي الذي يجب علينا أن نتولاه حتى نكون في حزب الله؟.

قال أبو ذر الغفاري رضي الله عنه في رواية طويلة أخرجها عنه الحاكم الحسكاني بسنده في شواهد التنزيل ج١ ص١٧٧ ط بيروت: «أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا جندب بن جنادة البدري أبو ذر الغفاري، سمعت النبي ﷺ بهاتين وإلا فصُمّتا، ورأيته بهاتين وإلا فعميتا، وهو يقول: علي قائد البررة، قاتل الكفرة، منصور من نصره، ومخذول من خذله، أما إني صليت مع رسول الله ﷺ يوماً من الأيام صلاة الظهر، فسأل سائل في المسجد فلم يعطه أحد، فرفع السائل يده إلى السماء وقال: اللّهم اشهد أني سألت في مسجد رسول الله ﷺ فلم يعطني أحد شيئاً. وكان علي بن أبي طالب راكعاً فأومأ إليه بخنصره اليمين وكان يتختم فيها، فأقبل السائل حتى أخذ الخاتم من خنصره، وذلك بعين النبي ﷺ فلما فرغ النبي ﷺ من صلاته رفع رأسه إلى السماء وقال: اللّهم إن أخي موسى سألك فقال: ﴿رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي(٢٥) وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي(٢٦) وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي(٢٧) يَفْقَهُواْ قَوْلِي﴾ فأنزلت عليه قرآناً ناطقاً ﴿سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ﴾ اللّهم وأنا محمد نبيك وصفيك اللّهم فاشرح لي صدري ويسر لي أمري واجعل لي وزيراً من أهلي علياً أخي اشدد به أزري، قال: فو الله ما استتم رسول الله ﷺ الكلام حتى نزل عليه

جبرئيل من عند الله وقال: يا محمد هنيئاً ما وهب لك في أخيك. قال ﷺ: وما ذلك يا جبرائيل؟ قال: أمر الله أمتك بموالاته إلى يوم القيامة وأنزل عليكم ﴿الآية﴾.

ونزول الآية واختصاصها بعلي بن أبي طالب(ع) يجعل الصورة لدينا مكتملة.. والمصادر التي أثبتت ذلك كثيرة نورد البعض منها... فلقد ورد الخبر مروياً عن جمع من الصحابة منهم:

١.أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وأخرجها:

ـ الحاكم النيسابوري، الحافظ الكبير في كتاب (معرفة علوم الحديث) ص١٠٢ ط مصر سنة ١٩٣٧.

ـ الفقيه المغازلي الشافعي في (المناقب) ص٣١١.

ـ الحافظ الحنفي الخوارزمي في (المناقب) ص١٨٧.

ـ الحافظ ابن عساكر الدمشقي (تاريخ دمشق) ج٢ ص٤٠٩ تحقيق المحمودي.

ـ ابن كثير الدمشقي في (البداية والنهاية) ج٧ ص٣٥٧ ط بيروت .

ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني في (الكاف الشاف في تخريج أحاديث الكشاف) ص٥٦ ط مصر.

ـ المحدث المتقي الهندي في (كنز العمال) ج١٥ ص١٤٦ في باب فضائل علي عليه السلام

٢.أبو ذر الغفاري وقد رواه عنه مجموعة من الحفاظ مثل:

ـ أبو إسحق أحمد بن إبراهيم الثعلبي في التفسير (الكشف والبيان عن تفسير القرآن).

ـ الحافظ الكبير الحاكم الحسكاني في شواهد التنزيل ج١ ص١٧٧ ط بيروت.

ـ سبط ابن الجوزي في التذكرة ص١٨.

ـ الحافظ ابن حجر العسقلاني في (الكشاف) ص ٥٦ وغيرهم من المحدثين.

٣.المقداد بن الأسود:

وأخرجه عنه الحافظ الحسكاني في (شواهد التنزيل) ج١ ص١٧١ ط بيروت تحقيق المحمودي.

٤.عبد الله بن عباس، وأخرجه عنه :

ـ أحمد بن يحيى البلاذري في (أنساب الأشراف) ج٢ ص١٥٠.

ـ الواحدي في (أسباب النزول) ص١٩٢ ط أولى سنة ١٣٨٩ تحقيق السيد

أحمد الصمد.

- الحاكم الحسكاني في (شواهد التنزيل) ج١ ص١٨.

- ابن المغازلي الشافعي في (المناقب) ص٣١٤ تحقيق المحمودي.

- الحافظ بن حجر العسقلاني في (الكشاف) ط مصر.

- جلال الدين السيوطي.

ورواة هٰذا الخبر من الصحابة أكثر مما ذكرناه ولكننا نكتفي بهٰذا القدر ونذكر بعض المصادر التي أوردت هٰذا الخبر (نزول آية الولاية في علي بن أبي طالب)

- الكنجى الشافي في كفاية الطالب.

- ينابيع المودة للقندوزي الحنفي.

- تفسير الطبري.

- ذخائر العقبى لمحب الدين الطبري.

- فتح القدير للشوكاني.

- تفسير القرطبي.

وغيرها من المصادر

الآية الرابعة

﴿يَاأَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللّهَ لاَ يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾الآية ٦٧ المائدة.

في هذه الآية يأمر المولى عزّ وجلّ نبيه بإبلاغ أمر بالغ الأهمية لدرجة أن عدم إبلاغه يعادل عدم إبلاغ كل الرسالة، والآية نزلت في حجة الوداع ،وفي ذلك الوقت كل الأحكام أو أغلبها كان النبي قد بلغها ،فما هو هذا الأمر الذي يعنى الكثير للرسالة الخاتمة...

لقد نزلت هذه الآية على النبي ﷺ في منصرفه من حجة الوداع ، يقول الراوي: «فلما نزل ﷺ غدير خم (مفترق طرق) وكان في وقت الضحى والحر شديد أمر بالدوحات فقممن ونادى الصلاة جامعة فاجتمعنا فخطب خطبة بالغة ثم قال: (إن الله تعالى أنزل إلي... ﴿بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ﴾ وقد أمرني جبرئيل عن ربي أن أقوم في هذا المشهد، وأعلم كل أبيض وأسود، أن علي بن أبي طالب أخي ووصيي وخليفتي والإمام من بعدي... فاعلموا معاشر الناس إن الله قد نصبه لكم ولياً، وفرض طاعته على كل أحد، ماضٍ

حكمه، جائز قوله ،ملعون من خالفه ،مرحوم من صدقه ،اسمعوا وأطيعوا فإن الله مولاكم وعلي إمامكم ،ثم الإمامة في ولده من صلبه إلى يوم القيامة...لا تحل إمرة المؤمنين بعدي لأحد غيره.

ثم رفعه ﷺ حتى صارت رجله مع ركبة النبي ﷺ وقال:

معاشر الناس هٰذا (علي) أخي ووصيي وواعي علمي وخليفتي على من آمن بي وعلى تفسير كتاب ربي[1]

وفي رواية (من كنت مولاه فهٰذا علي مولاه اللّهم وال من والاه وعاد من عاده والعن من أنكره واغضب على من جحد حقه.... الخ

وعرفت هذه الحادثة عند المحدثين بحادثة الغدير وهي في الحقيقة تنسجم تماماً مع مجموعة الحقائق التي فصلنا فيها سابقاً في حديثنا عن الخلافة والإمامة ،كما أنها تزيد الأمر إيضاحاً...

أورث الله من عباده في هذه الأمة بعض المصطفين الكتاب ثم أمر بطاعتهم ،وحدد ذلك بالولاية التي أعطاها للرسول ثم للذين آمنوا (الآية التي قال المحدثون انها نزلت في علي) ثم كان الإعلان العام والبيان

---

(١) أخرجه أبو جعفر محمد بن جرير الطبري بإسناده في كتاب الولاية في طرق أحاديث الغدير ـ عن زيد بن أرقم.

الختامي للنبي ﷺ حين قربت لحظة الوداع في أعظم موقف (حجة الوداع) ليسطر الوحي اهمية الأمر ﴿وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ﴾، ويعلن النبي في خطبة مفصلة (... فإن الله مولاكم وعلي إمامكم..) إنه توحيد الله المعلق برسالة الرسول وإمامة الإمام علي...

ولولا ورود حديث الغدير وتواتره لظللنا في حيرة من أمر هذه الآية الكريمة ،الشديدة في لهجتها التي تجعل أمر الولاية يعادل أمر الرسالة، وبالإضافة إلى حديث الغدير هناك الكثير من الروايات التي تحدد الخليفة والولي والإمام بعد النبي ﷺ في شخص علي بن أبي طالب ،لكن دعني قبل ذلك أذكّر ببعض الحقائق...

لقد سألني الكثير في حواراتي، وأعلم أن هذا السؤال يدور في خلد الكثيرين غيرهم ،وهو لماذا لم تحدد مفصلاً مسألة الخلافة والإمامة في القرآن؟! أقول:

ـ أولاً: هذا السؤال غير واقعي، بمعنى أن البعض عندما تحيط به الأدلة والبينات والحجج أياً كان مصدرها ،يبحث عن مهرب ومتكأ ليبرر لنفسه عدم التسليم لنتائج هذه الأدلة والبراهين، وهذه المشكلة نفسية ولا تجدي نفعاً، إن المطلوب من الإنسان اتباع العلم والحجة والبرهان ،وفي المقام

يكفي حديث واحد فقط من النبي صلى الله عليه وآله.

ثانياً، إن الأمر في القرآن الكريم واضح جداً وكل حديثنا في تثبيت الحقائق التي بدأنا بها البحث من القرآن ،ومع ذلك فإن تفسير النبي صلى الله عليه وآله للقرآن يرتفع لمقام حجية القرآن لأنه هو المخاطب الأول بالقرآن، بل إن بيانه وتفسيره من مختصاته صلى الله عليه وآله يقول تعالى، ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾[1].

ثالثاً، إننا نجد في القرآن أن موسى عندما نصب هارون خليفة له على بني إسرائيل لم يطالبوه بأن يكون ذلك في الألواح، فهو نبي إذا أمرهم بأمر فعليهم التسليم...

وكذلك قصة الملك طالوت ،لقد اصطفاه الله وأخبر نبيه بأن يؤتيه الملك فكان البلاغ عن طريق نبيهم «فالنبي هو الذي أخبرهم باصطفاء الله تعالى لطالوت وجعله حاكماً...».

هذه هي قصص القرآن ،فلماذا نحن نصر على أن اسم الخليفة والإمام لا بد من ذكره في القرآن؟ ألا يكفينا قول النبي وتحديده؟... ألا تكفينا محكمات القرآن التي تحدثت عن ضرورة خلافة الله في الأرض وسنة

---

(١) ٤٤/النمل.

الاصطفاء والامر بطاعة أولياء الله المنتجبين الذين آتاهم العلم والحكمة والملك.

رابعاً، ومع كل ذلك فقد جلجل بها الوحي واضحة جلية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهل البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾الأحزاب/٣٣.

إنهم يقولون، إن الله لم يذكرهم صراحة، وعندما يجدون أن الآيات لايمكن أن تكون أكثر صراحة من مثل هذه الآية يحرّفون المعنى ويحاولون إبعادها عن ظاهرها ... فالقضية ليست قضية عدم وضوح، بل هي مصداق لقوله تعالى، ﴿وَجَحَدُوا بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ﴾ النمل/ ١٤، وسنرجع إن شاء الله إلى مزيد من التفصيل في الآيات المباركة التي تتحدث عن ولاية علي بن أبي طالب وأهل البيت عليهم السلام.

لكن دعنا نذكر بعض المصادر لحديث الغدير الذي أعلنت من خلاله وحسمت مسألة الخلافة والإمامة.

أسباب النزول للواحدي ص١١٥، الدر المنثور، ٢/ ٨٦، فتح القدير للشوكاني ٢/ ٦٠ تفسير الفخر الرازي؛ ٥٠/١٢ الملل والنحل للشهرستاني الشافعي ١٦٣/١، ترجمة الإمام علي بن أبي طالب من تاريخ دمشق لابن عساكر؛ ٨٦/٢، شواهد التنزيل للحاكم الحسكاني ١/ ١٩٧الفصول المهمة

لابن الصباغ ص٢٥٠، ينابيع المودة: ص١٢٠، ص٢٤٩ وغيرها الكثير فيما يخص أسباب نزول الآية.

أما نص حديث الغدير وخصوصاً المقطع الذي يعلن فيه النبي ﷺ وجوب ولاية علي على الناس في قوله ﷺ: ألستم تعلمون أني أولى بالمؤمنين من أنفسهم؟ قالوا: بلى، فأخذ النبي ﷺ بيد علي فقال: من كنت مولاه فعلي مولاه، اللّهم وال من والاه وعاد من عاداه.[1]

فهو متواتر ومقطوع الصدور، كذلك بالألفاظ المختلفة ،ولم يلق حديث من العناية مثل ما لقي هذا الحديث، إذ رواه من الصحابة ١١٠ صحابي، ورواه من التابعين ٨٤، ورواه ٣٦٠ عالماً من علماء المسلمين، ابتداءً من القرن الثاني الهجري حتى القرن الرابع عشر، وقد اعتنى العلماء بشأن هذا الحديث فأفردوا له مجلدات خاصة، وممن ألف فيه:

١.محمد بن جرير الطبري: له كتاب الولاية في طرق حديث الغدير، يقول ابن كثير «وقد رأيت له كتاباً جمع فيه أحاديث الغدير في مجلدين

---

(١) مسند أحمد بن حنبل ٤/٢٨١، المناقب للخوارزمي الحنفي: ص٩٤، الفصول المهمة لابن الصباغ المالكي: ص٢٤ تاريخ الإسلام للذهبي: ٣/١٩٧، تفسير الفخر الرازي ٣/٦٣، ابن كثير البداية والنهاية ٥/٢١٢.

ضخمين»[١].

وقال الذهبي «رأيت مجلدين من طرق الحديث لابن جرير فاندهشت له ولكثرة تلك الطرق»[٢].

٢.والذهبي نفسه له كتاب (طرق حديث الولاية) وقد ذكره في تذكرة الحفاظ قال: «وأما حديث من كنت مولاه فله طرق جيدة وقد أفردت ذلك أيضاً»[١] وغيرهم ، وممن صحح هذه الرواية من أساطير وعلماء الحديث:

الترمذي، أبو جعفر الطحاوي، ابن عبد البر في الاستيعاب، سبط بن الجوزي، الآلوسي ـ ابن حجر في فضائل الصحابة من فتح الباري، الحاكم في المستدرك وقال: صحيح على شرط الشيخين، ابن الجوزي في المناقب... الخ

إن حديث الغدير صحيح ومتواتر في طرقه، صريح وواضح في دلالته، فالنبي من خلاله ينصب وزيره من أهله، ويعين أخاه علي بن أبي طالب ولياً على الناس وإماماً وخليفة من بعده تأكيداً لما جاء في قوله تعالى ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللَّهُ﴾ الآية، وتفصيلاً لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ

---

(١) البداية والنهاية ٦/١٤٧.

(٢) طبقات الحفاظ ٢/٥٤.

اصْطَفَيْنَا﴾ وقوله جلّ وعلا: ﴿أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾.

وأمر التنصيب وتعيين الخليفة والإمام بعد النبي ﷺ أمر ينسجم مع العقل وسيرة العقلاء، التي بدورها تنسجم مع سنن الله في الخلق، والتي بسطها سبحانه وتعالى في كتابه بصائر وهدىً، وجعلها تذكرة فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً.

وما ورد في حق علي بن أبي طالب عليه السلام من نصوص جلية، وتنبيه لفضله من قبل النبي ﷺ تجعلني أسطر جزءاً يسيراً منها في هذا المقام لتوضيح الأمر أكثر فأكثر لعزيزي القارئ:

علي بن أبي طالب الخليفة الأول

يطل علينا نور علي في كل رواية وحديث عن النبي ﷺ حول الخلافة والفضائل، فلنطل على ساحل هذا البحر الطمطام لنغترف قليلاً من كنوزه، ولنبدأ بقطرات من أحاديث خاتم الأنبياء: نقسمها على ثلاث

---

(١) تذكرة الحفاظ ٣/٢٣١.

طوائف:

طائفة الأحاديث الأولى

«من أراد أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويدخل جنة عدن غرسها ربي فليوال علياً من بعدي، وليوال وليه وليقتدي بالأئمة من ولده، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي ورزقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي»[1].

وقال ﷺ: «من أراد أن ينظر إلى آدم في علمه وإلى نوح في فهمه وإلى إبراهيم في حلمه وإلى موسى في هيبته وإلى عيسى في زهده فلينظر إلى علي بن أبي طالب».

وقال «أنا مدينة العلم وعلي بابها».

وقال: «يا علي أنت تبين لأمتي ما اختلفوا فيه»[2].

وقال: «علي مع القرآن والقرآن مع علي لن يفترقا حتى يردا على الحوض»[3].

---

(١) حلية الأولياء: ١/٨٦. شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد: ٩/١٧. مجمع الزوائد: ٩/١٠٨. ابن حجر في الإصابة: ٣/٢٢٠، وغيرها من المصادر.

(٢) مستدرك الحاكم ٣/١٢٢ وقال صحيح على شرط الشيخين. كنز العمال ٦/١٥٦ تاريخ دمشق ٢/٤٨٨ ينابيع المودة ص١٨٢ وغيرها.

(٣) مستدرك الحاكم ٣/١٢٤ وقال: صحيح الإسناد ـ الصواعق المحرقة ٢/٣٦١ تلخيص المستدرك للذهبي وصححه ٣/١٢٤.

وقال: «أقضاكم علي»[١].

وقال: «علي مني وأنا من علي ولا يؤدي عني إلا أنا أو علي»[٢].

وقال علي عن نفسه «سلوني قبل أن تفقدوني، سلوني عن كتاب الله عزّ وجلّ فما من آية إلا وأعلم حيث نزلت بحضيض جبل أو سهل أرض...»[٣].

وقال أيضاً «علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي كل باب ألف باب»[٤].

طائفة الأحاديث الثانية

عندما نزلت الآية ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ﴾ دعا النبي ﷺ أقرباءه إلى دار عمه ـ أبي طالب ـ وهم يومئذٍ أربعون رجلاً يزيدون رجلاً أو ينقصون رجلاً وفيهم أعمامه أبو طالب وحمزة والعباس وأبو لهب... فعرض عليهم الأمر وفي آخر ما قاله رسول الله ﷺ: «يا بني عبد المطلب إني والله ما أعلم شاباً في العرب جاء قومه بأفضل مما جئتكم به، فأيكم

(١) الصواعق المحرقة: ١٢٣.

(٢) وفي صحيح البخاري: «أنت مني وأنا منك»، صحيح البخاري كتاب المناقب باب مناقب علي بن أبي طالب عليه السلام، مسند أحمد ٥/ ٣٥٦، مستدرك الحاكم ٣/ ١١١، سنن ابن ماجة ١/ ٤٤، صحيح الترمذي، ٥/ ٦٣٥.

(٣) شرح نهج البلاغة: ٢/ ٢٣٥.

(٤) فرائد السمطين ١/ ١٠١، ينابيع المودة: ١/ ٨٣.

يؤازرني على أمري هٰذا على أن يكون أخي ووصيي وخليفتي فيكم؟ فأحجم القوم عنها غير علي ـ وكان أصغرهم ـ إذ قام فقال: أنا يا نبي الله أكون وزيرك عليه، فأخذ رسول الله برقبته وقال «إن هٰذا أخي ووصيي وخليفتي فيكم فاسمعوا له وأطيعوا»[١].

ـ وقوله ﷺ: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي»[٢].

قال ﷺ: «إن علياً مني وأنا منه وهو ولي كل مؤمن بعدي»[٣].

ـ أخرج الإمام أحمد بن حنبل في الجزء الأول من مسنده ص٣٣٠ والحاكم في المستدرك والذهبي في تلخيصه وغيرهم من أصحاب السنن عن عمرو بن ميمون قال: إني لجالس عند ابن عباس إذ أتاه تسعة رهط فقالوا: يا ابن عباس إما أن تقوم معنا وإما أن تخلو بنا من بين هٰؤلاء، فقال

(١) أخرجه بهذه الألفاظ وغيرها كثير من حفظة الآثار النبوية كابن إسحاق وابن جرير وابن مردويه والبيهقي في سننه والطبري في تفسير سورة الشعراء وكتابه تاريخ الأمم والملوك وأرسله ابن أثير إرسال المسلمات.

(٢) صحيح البخاري كتاب المغازي، باب غزوة تبوك، صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب فضائل علي ﷺ صحيح الترمذي ٥/٦٤١ وصححه مسند أحمد ٣/٥٠.

(٣) قال عنه المحب الطبري «وهو أقواها سنداً ورد الحديث من صحيح الترمذي ٥/٦٣٢، مسند أحمد ٥/٣٥٦ الاستيعاب بهامش الإصابة ٣/٢٨، الإصابة ٢/٥٠٩ مستدرك الحاكم: ٣/١٣٢، خصائص النسائي: ص٦١ ـ ٦٤، ينابيع المودة ص٥٥ و١٨٢ وغيرها من المصادر.

ابن عباس: بل أنا أقوم معكم، قال: وهو يومئذٍ صحيح قبل أن يعمى، قال: فابتدؤوا فتحدثوا فلا ندري ما قالوا، قال: فجاء ينفض ثوبه ويقول: أف وتف، وقعوا في رجل له بضع عشرة فضائل ليست لأحد غيره، وقعوا في رجل قال له النبي صلى الله عليه وآله: لأبعثن رجلاً لا يخزيه الله أبداً يحب الله ورسوله، ويحبه الله ورسوله فاستشرف لها من استشرف، فقال: أين علي؟ فجاء وهو أرمد لا يكاد يبصر فنفث في عينيه ثم هز الراية ثلاثاً، فأعطاها إياه، قال ابن عباس: ثم بعث رسول الله صلى الله عليه وآله أبا بكر بسورة التوبة فبعث علياً خلفه فأخذها منه وقال: لا يذهب بها إلا رجل هو مني وأنا منه، قال ابن عباس: وقال النبي صلى الله عليه وآله: لبني عمه: أيكم يواليني في الدنيا والآخرة، قال: وعلي جالس معه فأبوا وقال علي: أنا أواليك في الدنيا والآخرة، فقال النبي صلى الله عليه وآله لعلي: أنت وليي في الدنيا والآخرة، قال ابن عباس: وكان علي أول من آمن من الناس بعد خديجة، قال: وأخذ رسول الله صلى الله عليه وآله ثوبه فوضعه على علي وفاطمة والحسن والحسين فنزلت ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهل البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾. قال: وشرى علي النبيَّ بنفسه فلبس ثوب النبي، ثم نام مكانه وكان المشركون يرمونه، إلى أن قال: وخرج رسول الله في غزوة تبوك وخرج الناس معه فقال له علي: أخرج معك؟ فقال صلى الله عليه وآله لا

فبكى علي فقال له رسول الله ﷺ أما ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي، إنه لا ينبغي أن أذهب إلا وأنت خليفتي، وقال له رسول الله ﷺ، أنت ولي كل مؤمن بعدي ومؤمنة، قال ابن عباس، وسد رسول الله ﷺ أبواب المسجد غير باب علي، فكان يدخل المسجد جنباً وهو طريقه ليس له طريق غيره، قال، وقال رسول الله ﷺ، (من كنت مولاه فهذا علي مولاه) ... الحديث، قال الحاكم بعد إخراجه، هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (يقصد الشيخين)، وأخرجه الذهبي في تلخيصه ثم قال، صحيح[1].

طائفة الأحاديث الثالثة

ـ قال رسول الله ﷺ، «من سره أن يحيا حياتي ويموت مماتي ويسكن جنة عدن غرسها ربي، فليوال علياً وليوال وليه وليقتد بالأئمة من ولده من بعدي، فإنهم عترتي خلقوا من طينتي ورزقوا فهمي وعلمي فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي»

---

(١) مستدرك الصحيحين للحاكم ج٣ ص١٣٢ وصححه، تلخيص المستدرك للذهبي وصححه، مسند أحمد بن حنبل ج٥ ص٢٥ ح٣٠٦٢ بسند صحيح ط دار المعارف بمصر، خصائص أمير المؤمنين للنسائي ص٦١ـ ٦٤ الإصابة لابن حجر العسقلاني ج٢ ص٥٠٩ وغيرها من المصادر.

وقد أشرت إلى هذا الحديث في الطائفة الأولى وأعيده هنا لشيء في نفسي سأفصح عنه عند تعليقي على هذه الأحاديث.

- قال ﷺ: «إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما»[1].

- أخذ النبي ﷺ علياً وفاطمة وحسناً وحسيناً ووضع عليهم ثوبه وقال: اللّهم إن هؤلاء أهل بيتي فأذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، فنزلت الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهلَ البيتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ الآية، وهو الحديث المعروف بحديث الكساء[2].

- قال ﷺ: «مثل أهل بيتي فيكم كسفينة نوح من ركبها نجا ومن تخلف عنها غرق»[3].

(١) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة باب من فضائل علي بن أبي طالب مسند أحمد ١٨٢/٥ المستدرك ١٨٤/٣ ولمزيد من التفصيل حول تواتر رواية «الكتاب والعترة» وضعف سند رواية «كتاب الله وسنتي» مراجعة كتاب الحقيقة الضائعة للشيخ معتصم سيد أحمد.

(٢) صحيح مسلم كتاب فضائل الصحابة، باب فضائل أهل بيت النبي ﷺ صحيح الترمذي ٦٦٣/٥، مسند أحمد ٣٣٠/١ المستدرك على الصحيحين ١٣٣/٣و ١٤٦و ١٤٧و ١٥٨و ٤١٦/٢ ... وغيرها.

(٣) المستدرك ١٥١/٣، المعجم الكبير الطبراني: ص١٣٠ مجمع الزوائد الهيثمي ١٦٨/٩، تاريخ

القاسم المشترك بين هذه الطوائف الثلاث ، التي ذكرنا فيها نزراً يسيراً مما ورد في علي ابن أبي طالب خصوصاً وأهل البيت عليهم السلام عموماً هو الإطلالة المقدسة لمعاني الولاية والخلافة والإمامة «سمها ما شئت» المشخصة في شخص علي عليه السلام مما يجعله المصداق الأول لخلفاء النبوة والرسالة المصطفين الذين أورثوا الكتاب وجعلهم الله تعالى ولاة أمرنا...

لأننا في الطائفة الأولى نرى بوضوح الأعلمية المطلقة لعلي بن أبي طالب، الذي رُزق فهم وعلم النبي ﷺ فكان هو المبين للأمة ما يختلفون فيه بعد رحيل نبيهم.. أوليست هذه أهم رسالة للإمامة والتي قلنا من قبل أن قوامها العلم؟ لقد أكدها النبي ﷺ إذ وصف نفسه بمدينة العلم وكان علي هو الباب فمن أراد علم النبي (الرسالة والوحي) فعليه بعلي... كما أن علياً والقرآن (كلام الله تعالى الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه) لن يفترقا إلى يوم القيامة علامة أخرى، ويقول الذي لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى، «أقضاكم علي»

أولا نقرأ ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّىَ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُواْ فِيَ أَنْفُسِهِمْ حَرَجاً مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُواْ تَسْلِيماً﴾[1] إنها في النبي

=

الخلفاء ابن قتيبة ص٨٦، الصواعق المحرقة ابن حجر ص١٨٤... ولقد روى الحديث ثمانية ممن صحب رسول الله ﷺ.

(١) النساء/ الآية ٦٥.

لأنه الأقضى، أما من بعده الذي يجب أن لا نجد في أنفسنا حرجاً مما يقضي ونسلم تسليماً حتى نتسربل بلباس الإيمان؟ إنه علي...

وهكذا محمد ﷺ من علي عليه السلام وعلي عليه السلام من محمد ﷺ ولا يؤدي عن النبي إلا هو أو من كان منه.

أما الطائفة الثانية فتبرز ألفاظاً أخرى تضع النقاط فوق الحروف «أخي... خليفتي... وصيي» فالبعض يدعي أن النبي لمح إلى خلافة أبي بكر عندما أمره بالصلاة أثناء مرضه ـ والحادثة محل تأمل ـ وبنوا على ذلك بنيانهم، فلنعتبره تلميحاً فماذا نفعل بهذا التصريح؟ يقول النبي خليفتي ويقول وصيي، إنها اللغة العربية وحقيقة أنه لا يعقلها إلا العالمون... لأنها السنة الإلهية فما من نبي إلا وله وصي، ورسولنا الأكرم ﷺ يقولها وحياً يتلى ﴿مَا كُنتُ بِدْعاً مِّنَ الرُّسُلِ﴾[1].

ويشبه النبي ﷺ خلافة علي لشخصه الشريف بخلافة هارون لموسى.. إلا أن هارون كان نبياً ولا نبي بعد محمد ﷺ..

وفي الطائفة الثالثة يكتمل العقد المنضود الذي يرصع تاج الرسالة ببيان امتداد الخلافة إلى يوم القيامة، إنهم أهل البيت عليهم السلام الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيراً، الذين خُلقوا من طينة النبي ﷺ ورزقوا فهمه

---

(١) الأحقاف/ ٩.

وعلمه، مما جعلهم عدل للقرآن والثقل المكمل له إلى أن يردوا الحوض..
﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ الآية... إنها كرامة الله لنبيه صلى الله عليه وآله أن يجعل وراثة الكتاب والحكمة لذريته ويصطفيها على العالمين، ولقد اصطفى من قبل ﴿آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾ سورة آل عمران/ الآية ٣٣، وجعل في ذرية بعضهم النبوة والكتاب، ولم يكن فيهم أفضل من محمد صلى الله عليه وآله لينال هذا الفضل، ومضت سنة الله في أنبيائه رغم الحاسدين، ونال آل محمد العهد والوسام فكانوا كسفينة نوح من ركبها كان آمناً ومن تركها غرق وهوى...

وذرية محمد صلى الله عليه وآله من صلب علي عليه السلام انظر إلى المولى عزّ وجلّ كيف يدبر الأمور، إنه سميع عليم وحكيم له الأسماء الحسنى، لقد جعل الحبل المتصل بين النبوة والإمامة شخصاً بعظمة المقام وقدسية المهام... شخصاً هو روح النبوة وجوهر الإمامة... إنها فاطمة الزهراء عليها السلام التي انتظر الرسول صلى الله عليه وآله أمر زواجها ليأتي من السماء ،فكان التقدير الإلهي ليكون علي بن ابي طالب هو الزوج الأنسب لتمضي سنة الله في الأرض ،ولا مجال لمواصلة الحديث إلا عبر إطلالة مختصرة عن حياتها وما جاء حول شخصها، مع أنني تعرضت لذلك في كتابي (بنور فاطمة اهتديت) ولكنني

أجد نفسي عاجزاً عن الاستمرار في الكتابة إلا بعد التعرض لسيرتها، ولعل السر في ذلك يكمن في أنها الحلقة المكملة لتثبيت إرادة الله تعالى في هذا الكون.

مع فاطمة الزهراء عليها السلام

بدءاً لا بد من التذكير ببعض بصائر الوحي التي تبين أن المولى عزّ وجلّ له طرق خاصة للحفاظ على رسالاته، وعلى أمناء تلك الرسالات من انبياء ورسل وأئمة، من هذه الطرق ما هو غيبي على سبيل الإعجاز بشكل مباشر، ومنها ما يتم عن طريق السنن الطبيعية، ومجريات الحياة العادية ولكن يبقى القاسم المشترك وهو العناية الخاصة، وأبرز مصداق لما ذكرناه تجده مسطراً في القرآن الكريم من خلال السرد الوارد فيه لقصة نبي الله موسى عليه السلام ...

لقد ولد موسى عليه السلام في أجواء ملبدة بغيوم الظلم والاضطهاد، يترقب فرعون فيها كل مولود جديد في بني إسرائيل ويقتله..

فخافت أم موسى على نفسها ووليدها من ظلم ذلك الطاغية فماذا تفعل؟ هناك أوحى الله سبحانه إليها أن اقذفيه في التابوت فاقذفيه في اليم..

ولا تخافي ولا تحزني، وهنا يأتي الوعد الإلهي ﴿إِنّا رَآدّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ﴾ القصص/ ٧، لكن فؤاد أم موسى سيكون فارغاً حتى لتكاد أن تبدي الأمر لولا عناية الله ﴿لَوْلاَ أَن رَبَطْنَا عَلَىَ قَلْبِهَا﴾ القصص/ ١٠، والتقط موسى عليه السلام عدوه وعدو الله فرعون، لكن الله تعالى وبعناية أيضاً جعله محبوباً فقالت امرأة فرعون ﴿لاَ تَقْتُلُوهُ عَسَىَ أَن يَنْفَعَنَا أَوْ نَتّخِذَهُ وَلَداً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾ القصص/ ٩، وأمرت الأم أخته أن تقصه... لكن المحافظة على هذا الوليد تحتاج إلى عامل غيبي من جديد، فيحرم الله المراضع عليه فلا يقبل موسى أن يرضع من أي امرأة وهو المحتاج إلى من يرضعه، فيأتي دور الأخت ﴿هَلْ أَدُلّكُمْ عَلَىَ مَن يَكْفُلُهُ﴾ فيتحقق الوعد الإلهي ﴿فَرَجَعْنَاكَ إِلَىَ أُمّكَ كَيْ تَقَرّ عَيْنُها وَلاَ تَحْزَنَ﴾ طه/ ٤٠،.. ﴿وَلِتَعْلَمَ أَنّ وَعْدَ اللّهِ حَقّ وَلَـَكِنّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ القصص/١٣، والتفاصيل كثيرة لكن شاهدنا أصبح واضحاً يؤكده المولى تعالى ﴿.. ثُمّ جِئْتَ عَلَىَ قَدَرٍ يَمُوسَىَ(٤٠) وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ طه ٤٠ ـ ٤١ إنها عناية خاصة تليق بأهمية الأمانة الملقاة على هؤلاء العظماء (الخلفاء).

ولا شك أن البيئة ومحيط التربية يترك أثره الواضح في الأشخاص، لذلك فإن أغلب الرسل والأنبياء كانوا ﴿ذُرّيّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ﴾ والبيوت

التي ينزل فيها الوحي أولى من غيرها في الحفاظ على امتداد ذلك الوحي عبر عمق الزمن...

وهكذا كانت العناية الإلهية أن تكون ذرية النبي ﷺ من صلب علي عبر أطهر رحم في الكون... مرة أخرى نعود إلى فاطمة بنت محمد ﷺ مدار بحثنا، فهل ضرب في القرآن مثل يعبر عن شيء من واقع الطاهرة البتول...

جاء في حديث شريف (فاطمة سيدة نساء العالمين من الأولين والآخرين) فجاء السؤال «ومريم» قيل (تلك سيدة نساء عالمها)، مع أن فاطمة عليها السلام أرفع درجة من مريم عليها السلام ولكن من خلال آيات الذكر الحكيم التي تحدثت عن مريم بإمكاننا أن نحلق فوق سماء فاطمة عليها السلام والأمر لا يعدو أن يكون مقدمة أخرى للحديث عن شخص فاطمة عليها السلام من خلال آيات الوحي وكلمات الرسول ﷺ لأهمية فاطمة التي من نسلها أئمة الدين وولاة الأمر ومن نسلها مهدي آخر الزمان الذي يملأ الأرض عدلاً بعد ما ملئت جوراً وظلماً.. وهكذا كانت عناية الله بمريم إذ أنها انتجبت واصطفيت لا لكي تكون نبياً ولكنها ستكون أماً لصاحب عصرها وزمانها النبي عيسى عليه السلام.

يقول تعالى، ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ(٣٣) ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ(٣٤) إِذْ قَالَتِ امْرَأَةُ عِمْرَانَ رَبِّ إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّراً فَتَقَبَّلْ مِنِّي إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ(٣٥) فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَا أُنثَىٰ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ الذَّكَرُ كَالأُنثَىٰ وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّي أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ(٣٦) فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً وَكَفَّلَهَا زَكَرِيَّا كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقاً قَالَ يَمَرْيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَا قَالَتْ هُوَ مِنْ عِندِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَرْزُقُ مَن يَشَاءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ آل عمران/ (آية ٣٣ ـ ٣٧)

﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ وَاصْطَفَاكِ عَلَىٰ نِسَاءِ الْعَالَمِينَ(٤٢) يَمَرْيَمُ اقْنُتِي لِرَبِّكِ وَاسْجُدِي وَارْكَعِي مَعَ الرَّاكِعِينَ(٤٣) ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يُلْقُونَ أَقْلاَمَهُمْ أَيُّهُمْ يَكْفُلُ مَرْيَمَ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ يَخْتَصِمُونَ(٤٤) إِذْ قَالَتِ الْمَلاَئِكَةُ يَمَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ آل عمران/ (آية ٤٢ ـ ٤٥).

تطل علينا مسألة الاصطفاء من الذرية جيلاً بعد جيل، بدأ قبل العروج

إلى قصة مريم عليها السلام وتبدأ الآيات ببيان أهمية الاصطفاء والاجتباء من البيوت الطاهرة التي تضمن التربية ووراثة الصفات الحميدة... والتربية والإعداد للمهام العظيمة يبدأ منذ الحمل... هكذا بدأت قصة مريم إذ قالت امرأة عمران (أم مريم) لله تعالى ﴿إني نذرت لك..محرراً. مني﴾ فلما وضعت كان المولود أنثى وليس الذكر كالأنثى، ومع ذلك إني أعيذها وذريتها من الشيطان الرجيم، وهذه الاستعاذة ليست قلقلة لسان كما يفعل أكثر الناس، إنها قصة يحكيها المولى عزّ وجلّ واستجاب الدعاء فتقبلها ربها.. والاستعاذة بالله يعني الدخول في حصن الله والابتعاد عن الخطايا والزلل والآثام، واستجاب الله تعالى لأم مريم فهيأ طريق الحياة لمريم كالتالي وكما نستوحي من الآيات الكريمة:

١.أحسن المولى تنشئتها وتربيتها وجعل لها البيئة المناسبة لذلك، وذلك قوله ﴿أَنبَتَهَا نَبَاتاً حَسَناً﴾ والنبات إذا لم يزرع في بيئة متكاملة من حيث العناصر التي تناسبه لا يعطي ثماره.

٢.كفلها نبي من أنبياء الله هو زكريا وأَنعِمْ بها من كفالة.

٣.وكان رزقها متصلاً بلا انقطاع من عند الله الرازق بغير حساب.

وجاءت الكلمة الفصل لامرأة فاقت نساء زمانها وبعض الرجال لتنال

وسام الاصطفاء والتطهير ومن ثم خطاب الملائكة مبشرة ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِّنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهاً فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ وَمِنَ الْمُقَرَّبِينَ﴾ آل عمران/٤٥.

ما ذكرته آنفاً كان ضرورياً حتى لا يتعجب القارئ وأنا أتحدث عن فاطمة ، والتي نجد في قصتها عبراً ودروساً كثيرة لا نستطيع أن نمعن النظر فيها وأن نعقلها إلا من خلال البصائر والرؤى التي ترد في قصص القرآن كقصة مريم عليها السلام ، وبما أن قرآننا هو الكتاب الخاتم للكتب السماوية فإنه لن يأتي كتاب جديد ليحكي لنا عن عظمة فاطمة، فإننا نحتاج للحقائق المستخلصة من قصص الصفوة .. مع أن آيات الذكر الحكيم خصت أهل البيت عليهم السلام (علي وفاطمة وذريتهما) بالكثير كما سنستعرضه... إلا أن البعض ما زال يحاول أن يحجب نور الشمس عن الكرة الأرضية بأصبعه وآنى له ذلك...

إن فاطمة بنت أعظم وأفضل وأكمل نبي، فإن كفل زكريا مريم تكملة لإنباتها الحسن، فإن فاطمة ولدت من صلب محمد ﷺ ورحم خديجة الزوجة الأولى التي كان لها شرف إنجاب الذرية المتصلة، وتربت في حجر ذات العظيم محمد(ص) وعاشت معه اللحظة باللحظة... فهي الكوثر كما

أطلق عليها القرآن.. منذ حملها كانت محاطة بالعناية الإلهية، وفي ولادتها وسيأتيك ذكر ذلك، وحين زواجها الذي كان بأمره تعالى، كل ذلك بتقدير الله عزّ وجلّ لتنجب الذرية التي تحمل أمانة الرسالة، فكان الزوج علي بن أبي طالب ولا شخص غيره خليفة رسول الله ووارث علمه المصطفى للولاية والمختار للإمامة.. كل تلك العناية ألا تستحق أن تتوج بالاصطفاء والتطهير كما كانت مريم وأفضل؟ .. بلى والذي برأ النسمة وفلق الحبة، وإليك المزيد.

فاطمة الزهراء عليها السلام روح النبوة وجوهر الإمامة[1]

فاطمة عليها السلام في القرآن

كثيرة هي الآيات التي تحدثت عن قدسية الزهراء عليها السلام ومكانتها السامية، سنختار هنا بعضاً منها.

الآية الأولى

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهل البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ (سورة الأحزاب، آية/٣٣).

---

(١) أخذنا هذا الجزء من كتابنا (بنور فاطمة اهتديت) بتصرف.

تشمل هذه الآية المباركة فيمن تشمل السيدة فاطمة الزهراء عليها السلام بل هي محور الآية وأساسها.. لأنها نزلت في أهل بيت النبوة، ولنا حديث مع أولئك الذين حاولوا إدخال البعض من غير أهل البيت في نطاق الآية، وما يهمنا الآن هو أن الزهراء معنية بهٰذا الخطاب الإلهي.. ولقد فصلت السنة في سبب نزول الآية وفيمن جاءت.

ولكن دعنا الآن نتدبر الآية، ومن خلالها نتعرف على شخصية فاطمة عليها السلام.

إن المتأمل في كلمات الآية يتوصل إلى أن المخاطبين بهذه الآية، وفاطمة أحدهم مطهرون معصومون من كل رجس، وتقريب ذلك تصدير الآية بأقوى أدوات الحصر على الإطلاق (إنما) مما يعني أن هٰذا الأمر خاص بجماعة معينة محددة لا يتعداهم إلى غيرهم، ثم يأتي البحث عن الإرادة الإلهية التي ذكرت في الآية ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهل البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾ هي إرادة المولى عزّ وجلّ ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْئاً أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ فلا يمكن بحال تخلف إرادته تعالى.

أما الرجس في اللغة فمعناه كل ما يلوث الإنسان سواء كان لوثاً ظاهرياً أو باطنياً والذي يعبر عنه بالإثم.. والرجس في هذه الآية هو اللوث

والنجاسة الباطنية، لأن الابتعاد والطهارة من النجاسة الظاهرية وظيفة دينية عامة لجميع المسلمين، وذلك لشمول التكليف للجميع، ولا خصوص لأهل البيت حتى ترد هذه الآية بحصرها وتوكيدها لنفي الرجس الظاهري عن أهل البيت. إنما جاءت لبيان فضيلة لهم خصهم بها الله سبحانه وتعالى وأخبر عنها في كتابه العزيز.

ثم يأتي التأكيد ﴿وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾، إن النظرة العميقة للآية تجعلنا لا نشك لحظة واحدة في عصمة أهل البيت الذين ذكروا فيها، ومنهم فاطمة بنت محمد ﷺ فهي معصومة مطهرة من كل رجس ظاهراً وباطناً، فإن الله تعالى إن كان قد اصطفى مريم وطهرها واصطفاها على النساء، لأنها أحصنت فرجها وكانت برعاية نبي من أنبياء الله، ومن قبل دعت لها أمها وأعاذتها وذريتها من الشيطان الرجيم، فالأولى فاطمة بنت محمد (أفضل من خلق الله وأحبهم إليه تعالى) فإرادة الله تعالى شاءت أن تكون ذرية خاتم أنبيائه من رحم فاطمة.

الآية الثانية

قوله تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ سورة الشورى، آية/٢٣. لقد جعل الله سبحانه وتعالى أجر الرسالة مودة أهل البيت

ومنهم فاطمة الزهراء عليها السلام ، فالآية نزلت في قربى الرسول وهم علي وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام كما نقل ذلك أعلام الحديث والتفسير مثل الحاكم الحسكاني الحنفي في شواهد التنزيل ج ٢ ص ١٣٠ والحاكم النيسابوري في المستدرك [1].

إنها العظمة والرفعة ومعنى الاصطفاء في أنقى صوره.. لقد وزن الله تعالى الرسالة المهيمنة على كل الرسالات بمودة القربى..

لم يطلب أيّ من الأنبياء السابقين أجراً من أقوامهم إنما كان قولهم ﴿وَمَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَىٰ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾، لقد ذكر ذلك في القرآن على لسان الأنبياء نوح وهود وصالح ولوط وشعيب [2].

ولكن نبينا الأعظم أمره الله عزّ وجلّ بأن يسأل أمته المودة في القربى، ولكن لا لكي يستفيد هو بل لتستفيد أمته، لأنه ليس بدعاً من الرسل ليطالب بأجر لرسالته من دون الرسل، كما أنه ليس من المتكلفين كما جاء على لسانه قوله تعالى، ﴿قُلْ مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَآ مِنَ

(١) وقد جاء في صحيح البخاري في المناقب ج ٤ ص ٢١٩ عن ابن عباس قال: إلا المودة في القربى، القربى قربى محمد ﷺ.

(٢) مراجعة الآيات ١٠٩ - ١٢٧ - ١٣٢ - ١٤٥ - ١٦٤ - ١٨٠) من سورة الشعراء.

الْمُتَكَلِّفِينَ﴾[١]، ودليلنا على أن الفائدة من هذا الأجر الذي طلبه منا تعود علينا نحن قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ إِنْ أَجْرِيَ إِلاَّ عَلَى اللَّهِ﴾[٢]، وبنظرة أخرى إلى آيات القرآن الحكيم نجد أن هذا الأجر المتمثل في مودة القربى هو السبيل إلى الله تعالى في قوله عزّ وجلّ ﴿مَآ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلاَّ مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلاً﴾[٣]، وهو الذكرى للعالمين كما يقول تعالى: ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرَى لِلْعَالَمِينَ﴾. إذاً مودة القربى هي الذكرى وهي السبيل الذي يقول عنه تعالى ﴿إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً وَإِمَّا كَفُوراً﴾ والسبيل إلى الله لا بد أن يكون قويماً لا عوج فيه، يعني باتباعه نضمن أننا على الصراط المستقيم ونهايتنا الجنة، بمعنى أقرب لا بد أن يكون معصوماً، وقد تجسد في القربى وهم أهل البيت عليهم السلام كما هو المسلم به عند جميع المسلمين فيما يرتبط بنزول الآية في أهل البيت عليهم السلام وفاطمة عماد ذلك البيت فوجب أن تكون معصومة لأنها أحد مصاديق ذلك السبيل.

---

(١) سورة سبأ: آية /٤٧.

(٢) سورة ص: آية /٨٦.

(٣) سورة الفرقان: آية /٥٧.

لقد استحقت فاطمة هذا الوسام الإلهي الذي سطرته آيات الذكر الحكيم بجدارة.. إنه رصيد يضاف لمناقب الزهراء ،وفضائلها وإلى المزيد.

الآية الثالثة

قوله تعالى: ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية/٦١).

لم يختلف المسلمون أن هذه الآية أيضاً من مختصات أهل البيت فهي نزلت يوم مباهلة نصارى نجران ،وقد أمر الله تعالى النبي ﷺ أن يأخذ معه علياً وفاطمة والحسن والحسين عليهم السلام. فكانت هذه الآية، وذلك مما ذكره مسلم في صحيحه كتاب الفضائل باب فضائل علي بن أبي طالب عليه السلام[١]. وهكذا مثلت فاطمة عليها السلام كل نساء الأمة وكانت المباهلة بمثابة تثبيت للرسالة، ولأهمية الحديث وعظمته في مسيرة الإسلام كان المباهل بهم مع النبي ﷺ هم علي وفاطمة وابناهما.. مع أن الآية ذكرت

---

(١) كما أورد ذلك السيوطي في إحياء الميت والزمخشري في تفسيره الكشاف، والفخر الرازي في تفسيره والسيوطي في الدر المنثور والقندوزي الحنفي في ينابيع المودة والبخاري وغيرها من المصادر.

وجاء ذلك أيضا في مستدرك الصحيحين للحاكم ومسند أحمد بن حنبل ج ١ ص ١٥٨.

(نساءنا) بصيغة الجمع إلا أن التمثيل المقدس حصر في فاطمة فقط دون غيرها من النساء ولا حتى نساء النبي صلى الله عليه وآله، فتأمل عزيزي القارئ فالموقف حساس والرسالة تمضي قدماً في أوساط الجزيرة العربية لتثبت قواعد الحضارة الشامخة كما يريدها المولى عزّ وجلّ، والمباهلة لم تكن حادثة عابرة بل تكمن خلفها إرادة إلٰهية سطرها الوحي، وذلك عندما أمر الله سبحانه وتعالى النبي بأخذ النساء والأبناء والأنفس، وليكون انتصار الإرادة السماوية في مواجهة حاسمة.. هذه الإرادة التي تجلت في تحدٍّ مثّله المصطفى الأمجد والوصي المرتضى علي والإمامان الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة، وفي قلب المشهد كانت فاطمة التي أزهرت بنورها لتكتمل حلقة الإرادة الإلٰهية، وتتجلى حكمة البارئ في ضمانة الإستمرار، وفاطمة لم تكن نبياً وليست إماماً، وكذلك مريم التي لاقت ما لاقت من عناية واصطفاء لأنها ستكون أماً لنبي مع أنها كانت مقدسة في شخصها بسبب الرعاية الإلٰهية، وكذلك بنت نبينا صلى الله عليه وآله لأنها الحلقة الأهم في الضمانة الإلٰهية التي قدرها الله تعالى قبل أن يخلق الخلق، وأشار إليها عند خلق آدم عليه السلام فقال للملائكة ﴿إِنِّيَ أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ﴾، هذه هي فاطمة وما أدراك ما فاطمة! فانطلق بعقلك لتدرك مكانة الزهراء وعظمتها وما

أظنك بقادر إلا إذا فتحت قلبك لنور الحق .

آيات أخرى

يقول تعالى، ﴿إِنَّ الأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُوراً(٥) عَيْناً يَشْرَبُ بِهَا عِبَادُ اللَّهِ يُفَجِّرُونَهَا تَفْجِيراً(٦) يُوفُونَ بِالنَّذْرِ وَيَخَافُونَ يَوْماً كَانَ شَرُّهُ مُسْتَطِيراً﴾ إلى قوله تعالى، ﴿إِنَّ هَٰذَا كَانَ لَكُمْ جَزَاءً وَكَانَ سَعْيُكُم مَّشْكُوراً﴾ (سورة الإنسان،آية/٥ - ٢٢)، هذه الآيات نزلت في علي وفاطمة والحسن والحسين بمناسبة قصة صيامهم ثلاثة أيام، وتصدقهم في تلك الأيام الثلاثة بطعامهم على المسكين واليتيم والأسير، بينما هم في أشد الحاجة إلى الطعام لإفطارهم.. ولقد ذكر جمع كبير من المحدثين والمفسرين أن هذه الآيات نزلت في هؤلاء الأربعة. منهم الزمخشري في كشافه.. والفخر الرازي في تفسيره[1].

إن نزول هذه الآيات في علي وفاطمة والحسنين ينبوع آخر لكرامتهم ومكانتهم عند الله.. إذ إن الخالق جل وعلا خاطبهم من عليائه بصيغة الأمر الذي أبرمه وفرغ منه ﴿فَوَقَاهُمُ اللَّهُ شَرَّ ذَٰلِكَ الْيَوْمِ وَلَقَّاهُمْ نَضْرَةً وَسُرُوراً﴾

---

(١) الكشاف ج ٤ ص ٦٧٠ ط بيروت، أسد الغابة لابن الأثير الشافعي ج ٥ ص ٥٣٠ - ٥٣١، تذكرة الخواص للسبط بن الجوزي وشواهد التنزيل للحاكم، الدر المنثور للسيوطي وغيرها من المصادر.

وَجَزَاهُمْ بِمَا صَبَرُواْ جَنَّةً وَحَرِيراً﴾ إلى آخر الآيات هذه هي حقيقة الزهراء فاطمة وتلك هي مكانتها عند الله.

يطول بنا المقام لسرد كل ما جاء عن فاطمة في القرآن، ولقد جمع أحد العلماء الآيات التي نزلت في فضل فاطمة وأهل البيت فبلغت (٢٥٨) آية من الذكر الحكيم.

ومع ذلك لو لم تأت إلا آية التطهير أو المباهلة لكفى بها موعظة لقوم يؤمنون ،فهذا قرآن عظيم في كتاب مكنون تنزيل العزيز الحميد.

فاطمة عليها السلام بلسان ابيها؟

قبل الانطلاق في أحاديث الرسول صلى الله عليه وآله عن فاطمة: لا بد من الانتباه إلى أن النبي صلى الله عليه وآله حينما يتحدث عن فاطمة فإنه لا ينطلق من عاطفة الأبوة، فقد قال فيه الباري عزّ وجلّ ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىَ (٣) إِنْ هُوَ إِلاّ وَحْيٌ يُوحَىَ﴾ وهو صلى الله عليه وآله في عموم حديثه عن الأشخاص لا يعطي أحداً أكثر مما يستحقه تبعاً لعاطفته، وحتى لو كان ذلك الإنسان ابنته.

ولو أننا قلنا بغير ذلك لطعنا في نبوته وكلماته القدسية، التي نؤمن جميعاً بأنها حجة لا زيغ فيها ولا هوىً.. قال عبد الله بن عمرو بن العاص، «كنت أكتب كل شيء أسمعه من رسول الله صلى الله عليه وآله فنهتني قريش وقالوا

تكتب كل شيء سمعته من رسول الله وهو بشر يتكلم في الغضب والرضى؟ فأمسكت عن الكتابة فذكرت ذلك لرسول الله فأومأ بأصبعه إلى فيه وقال: «اكتب فوالذي نفسي بيده ما خرج منه إلا حق»".

إن النبي الأكرم ﷺ لا ينطق إلا صدقاً وعدلاً ، فلنضع كلماته عن الزهراء نصب أعيننا ونحن نقرأ عن سيرتها.

وملاحظة أخرى وهي أنه ﷺ ركز في شخصية فاطمة على قدسيتها وخلوصها لله تعالى وقربها منه ﷺ، بحيث يجعلك تأخذ الإحساس بأنها جزء منه ما يصيبه كأنما أصابها وما يصيبها فقد أصابه، وأنها تمثله جسداً وموقفاً.. تعبر عنه وهو المعبر عن إرادة الله تعالى، وذلك في مجمل أحاديثه عن فاطمة «من أسخط فاطمة فقد أسخطني»، «من أغضب فاطمة فقد أغضبني ومن أغضبني فقد أغضب الله».. وعلى هذا المنوال.

ولقد استوقفني كثيراً محور كلام الرسول(ص) عن ابنته، والذي كان يدور حول غضبها وسخطها ورضاها، وكأنه ـ بأبي وأمي ـ يلمح للأمة بمصيبتها وابتلائها في موقفها من الزهراء.. وهذا لا ولن يخفى على ذوي الألباب المتفتحة والقلوب المفعمة بحب النبي وآله ، فلماذا يا ترى كان التركيز على هذا المحور بالذات؟! هل يعقل أن يكون ذلك بلا سبب؟! ألا يحمل هذا في طياته دلالات عميقة وإشارات واضحات؟! للإجابة على هذا ،

السؤال نحيلك لكتابنا (بنور فاطمة اهتديت) فهناك فصلنا في حكمة ذلك.

وإليك بعضاً مما قاله المصطفى في ابنته ربيبة الوحي فاطمة الزهراء عليها السلام:

١. «فاطمة بضعة مني فمن أغضبها أغضبني».

رواه البخاري في صحيحه باب مناقب قرابة الرسول ج ٤ ص ٢٨١ دار الحديث القاهرة[1].

٢. «إنما فاطمة بضعة مني يؤذيني ما آذاها».

رواه مسلم في صحيحه كتاب فضائل الصحابة باب فضائل فاطمة.

وفي رواية «فاطمة بضعة مني يقبضني ما يقبضها ويبسطني ما يبسطها»[2].

٣. قال الرسول صلى الله عليه وآله لفاطمة عليها السلام:

«إن الله يغضب لغضبك ويرضى لرضاك» رواه الحاكم في المستدرك على الصحيحين كتاب مناقب الصحابة ص ١٥٤ وقال عنه حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

(١) ذكره ابن حجر في الصواعق المحرقة ص ١٨٨.

(٢) أورده ابن حجر في صواعقه أيضاً ص ١٩٠، وقد جاء هذا الحديث بصيغ مختلفة تعبر عن نفس المعنى في كثير من المصادر مثل مسند أحمد بن حنبل وكنز العمال والإمامة والسياسة لابن قتيبة... وغيرها.

٤. قال صلى الله عليه وآله ، ياعلي، إن الله أمرني أن أزوجك فاطمة. وقال صلى الله عليه وآله، إن ا لله زوج علياً من فاطمة[1].

جاء في صحيح البخاري كتاب بدء الخليقة في باب علامات النبوة ج ٤ ص ٢٥٠ بسند عن عائشة قالت، أقبلت فاطمة تمشي ما تخرم مشيتها مشية النبي صلى الله عليه وآله فقال النبي صلى الله عليه وآله، مرحباً بابنتي ثم أجلسها عن يمينه أو عن شماله ثم أسر إليها حديثاً فبكت فقلت لها لم تبكين؟! ثم أسر إليها حديثاً فضحكت فقلت ما رأيت كاليوم فرحاً أقرب من حزن فسألتها عما قال، فقالت، ما كنت لأفشي سر رسول الله صلى الله عليه وآله حتى قبض النبي صلى الله عليه وآله فسألتها فقالت، أسر إلي أن جبرائيل كان يعارضني بالقرآن كل سنة مرة وأنه عارضني العام مرتين ولا أراه إلا حضر أجلي وإنك أول أهل بيتي لحاقاً بي فبكيت فقال، أما ترضي أن تكوني سيدة نساء أهل الجنة فضحكت لذلك[2].

وأورد الترمذي في سننه كتاب المناقب عن حذيفة قال، «أتيت النبي صلى الله عليه وآله فصليت معه المغرب فصلى حتى صلى العشاء ثم انفتل فتبعته فسمع صوتي فقال، من هذا حذيفة؟ قلت، نعم قال، ما حاجتك غفر الله لك

---

(١) الصواعق المحرقة: ص١٤٢ و١٧١. ذخائر العقبى: ص٣٠، ٣١.

(٢) ورواه ابن الأثير في أسد الغابة ج ٥ ص ٥٢٢. وابن حجر في الإصابة ج ٥ ص ١٥٦.. كما جاء في ميزان الاعتدال للذهبي وغيرها من المصادر.

ولأمك؟ ثم قال، إن هذا ملك لم ينزل الأرض قط قبل هذه الليلة استأذن ربه أن يسلم علي ويبشرني بأن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة وأن الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة»[1].

وجاء في المستدرك ج ٢ ص ٢٩٤ بسنده عن عائشة قالت لفاطمة، ألا أبشرك؟ إني سمعت رسول الله ﷺ يقول «سيدات نساء أهل الجنة أربع مريم بنت عمران، وفاطمة بنت محمد، وخديجة بنت خويلد، وآسيا بنت مزاحم».

وقال عنه الحاكم النيسابوري حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه «يقصد بخاري ومسلم».

وجاء في كنز العمال ج ٧ ص ١١١ أن فاطمة سيدة نساء أهل الجنة.

وذكر محب الدين الطبري حديث أفضل أربع نساء فضلهم الله في ذخائر العقبى ص ٤٤ وأضاف وأفضلهم فاطمة.

٥ . عن عائشة أنها كانت إذا ذكرت فاطمة بنت النبي ﷺ قالت: ما

---

(١) ورواه ابن حجر في الصواعق ص ١٩١ والحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٥١، كتاب مناقب الصحابة وقال عنه: صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

رأيت أحداً كان أصدق لهجة منها إلا أن يكون الذي ولدها [(١)].

٦. أورد السيوطي في الدر المنثور في ذيل تفسير قوله تعالى، (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام) قال، وأخرج الطبراني عن عائشة قالت، قال رسول الله صلى الله عليه وآله «لما أسري بي إلى السماء أدخلت الجنة فوقفت على شجرة من أشجار الجنة لم أر في الجنة أحسن منها ولا أبيض ورقاً ولا أطيب ثمراً فتناولت ثمرة من ثمراتها فأكلتها فصارت نطفة في صلبي فلما هبطت إلى الأرض واقعت خديجة فحملت بفاطمة فإذا أنا اشتقت إلى ريح الجنة شممت ريح فاطمة».

وروى الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٥٦ بسنده عن سعد بن مالك قال، قال صلى الله عليه وآله، «أتاني جبرئيل عليه السلام بسفرجلة من الجنة فأكلتها ليلة أسري بي فعلقت خديجة بفاطمة فكنت إذا اشتقت إلى رائحة الجنة شممت رقبة فاطمة».

٧. عن ابن عباس قال، قال رسول الله صلى الله عليه وآله، ابنتي فاطمة حوراء آدمية لم تحض ولم تطمث. وإنما سماها فاطمة لأن الله فطمها ومحبيها عن النار،

---

(١) رواه الحاكم في مستدركه ج ٣ ص ١٦٠ وقال حديث صحيح على شرط مسلم.. كما ذكره ابن عبد البر في استيعابه ج ٢ ص ٧٥١.

ذكره ابن حجر في صواعقه ص ١٦٠ كما أخرجه النسائي وجاء في تاريخ بغداد أيضاً ج ١٢ ص ٣٣.

٨. في صحيح الترمذي ج ٢ ص ٣١٩ عن عائشة أم المؤمنين قالت: ما رأيت أحداً أشبه سمتاً ودلاً وهدياً برسول الله صلى الله عليه وآله.. قالت: وكانت إذا دخلت على النبي قام إليها وقبلها وأجلسها في مجلسه وكان النبي صلى الله عليه وآله إذا دخل عليها قامت من مجلسها فقبلته وأجلسته في مجلسها الحديث.

رواه أيضاً أبو داود في صحيحه ج ٣٣ في باب ما جاء في القيام. ورواه الحاكم أيضاً في مستدرك الصحيحين ج ٣ ص ١٥٤.

٩. جاء في مسند أحمد بن حنبل ج ٥ ص ٢٧٥ كان رسول الله صلى الله عليه وآله إذا سافر جعل آخر عهده فاطمة وأول من يدخل عليه إذا قدم فاطمة..

وذكر ذلك الحاكم في المستدرك ج ١ ص ٤٨٩ ورواه البيهقي في سننه.

١٠ . قال رسول الله صلى الله عليه وآله لعلي وفاطمة والحسنين: «أنا سلم لمن سالمكم وحرب لمن حاربكم» رواه أحمد بن حنبل في مسنده ج ٢ ص ٤٤٢ والحاكم في المستدرك ص ١٤٩ وابن الأثير في أسد الغابة ج ٣ ص ١١ وج ٥ ص ٥٢٣.

١١ . في الصواعق المحرقة لابن حجر ص ١٩٠ أن النبي صلى الله عليه وآله قال: إذا كان

يوم القيامة نادى مناد من بطنان العرش، «يا أهل الجمع نكسوا رؤوسكم وغضوا أبصاركم حتى تمر فاطمة بنت محمد على الصراط فتمر مع سبعين ألف جارية من الحور العين كمر البرق» ذكره الحاكم في المستدرك ج ٣ ص ١٥٣.

كانت جولتنا مع أحاديث الرسول ﷺ حول فاطمة قصيرة مقارنة بما ورد في حقها، ولكن هذا القدر يكفي للعاقل حتى يتعرف على الزهراء عليها السلام التي أحاطتها العناية الإلهية من قبل ميلادها وكانت في جنة الخلد... هنالك كان المبدأ كما في رواية الإسراء، والجنة هي النهاية كما علمت، وما بين الانطلاقة الأولى من الجنة والمنتهى فيها كانت حياة الزهراء عظيمة تنبض بكل معاني القيم النبيلة.. فهل من الممكن أن يكون هناك انحراف في منتصف الطريق؟! يقيناً لا، لذلك أوصى الرسول بفاطمة كثيراً وحذر الناس من غضبها الذي يعني غضبه بل وغضب الله عزّ وجلّ كما مر، وشهدت لها عائشة بأنها أصدق الناس لهجة فهي الصّديقة، كما أن العناية الإلهية كان لها الدور المباشر في صياغة شخصية الزهراء، فصار أذاها أذى الرسول الذي يعني أذى الرسالة، ونزل الوحي يجلجل بالتطهير كما جاء في آية التطهير، وتأكيداً على قدسية المسير ومباركة الرب لعمل

فاطمة وأهل بيتها كانت سورة الإنسان.... وحتى نزداد يقيناً بارتباط الزهراء بالوحي واستقامتها كانت المباهلة، ثم الزواج المبارك الذي تم في السماء قبل أن يتم في الأرض بأمره سبحانه وتعالى. ورعاية الرسول ﷺ الخاصة بفاطمة حتى إنه عند قدومها يقبلها ويجلسها في مجلسه وكذا العكس.. ولا يخرج ﷺ في سفر إلا أن يكون آخر من يودعه ابنته وأول من يسلم عليه عندما يعود.. هي سيدة نساء العالمين وسيدة نساء أهل الجنة، إذاً كل فعل تفعله هو فعل أهل الجنة، وكل موقف تقفه هو موقف أهل الجنة، ولو نظرت في الجنة لرأيت نعيماً وملكاً كبيراً، ويأتي المنادي غضوا أبصاركم حتى تجوز فاطمة وتستقر في مقام محمود منه انطلقت وإليه تعود.

هذه المسيرة المقدسة، وهذه العظمة ألا تدفعنا للوقوف إجلالاً وإعظاماً لشخصية قدستها السماء وبارك مسيرتها أبوها صاحب رسالة السماء؟ كل ذلك ألا يجعلنا نتوقف قليلاً أمام مواقفها؟ ألا تجعلنا نفكر في الحكمة من هذه الرعاية والاهتمام؟! يبدو لي أننا حتى نستوعب كل ذلك نحتاج إلى عقل سليم وقلب مفرغ من الغرور والاستكبار والهوى، لقد جسدت الزهراء تعاليم الوحي.. وسارت وفق هداه فكانت من الجنة إلى الجنة، وما

بين المبدأ والمنتهى عاشت ثمانية عشر ربيعاً في هذه الدنيا خالصة لله، وشاء الله أن تكون هي سبب ذرية خير رسله وخاتمهم، لذلك كان غضبها هو غضب الله فتأمل وتفكر وتدبر.

إمامة أهل البيت عليهم السلام مشكاة النور

قريب صديقي الذي كنت أحاوره عندما تعرضنا أثناء حوارنا لموضوع الإمامة قال لي، أنتم يا شيعة جعلتم المسألة أقرب إلى الملوكية يرثها أحفاد النبي، وكأن الرسالة ملك خاص، ثم رفعتم هؤلاء الأئمة فوق البشر وجعلتموهم معصومين، وزدتم غلواً فيهم فأضحوا يعلمون الغيب الذي لا يعلمه إلا الله، قلت له، إن القرآن نفسه الذي هو كلام الله يذكر أن الغيب يعلمه البعض ويطلع عليه بإذن الله ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً (٢٦) إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾... لكن دعني أسألك كمقدمة لموضوع العصمة، هل تعتقد بعصمة الرسول ﷺ؟ سكت قليلاً ثم قال، النبي معصوم فيما يخص الدين، قلت، وما المقصود بالدين؟ دعني أسألك سؤالاً آخر، هل تعتقد بأن سورة عبس نزلت في النبي ﷺ؟ قال، نعم، قلت، يعني تعتقد بأن الرسول ـ حاشاه ـ عبس وتولى من الأعمى حتى نزلت فيه

آيات نتلوها ليل نهار تُقرّع الرسول، إذاً عن أي عصمة تتحدث؟! نحن الشيعة ننزه النبي ﷺ الذي قال عنه المولى عزّ وجلّ ﴿وَإِنَّكَ لَعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾ ننزهه من كل خطأ بل ومن السهو والغفلة، فهو معصوم عصمة كاملة، أما أنتم فترونه ذلك الذي عبس في وجه شخص جاء يتزكى، وترونه ذلك الشخص الذي سُحر لمدة ٦ أشهر حتى أصبح لا يعلم ما يقوله.. بل حكم في الأسرى خطأ فصححه عمر بن الخطاب حتى نزل وحي يؤيد عمر ويغلّط النبي، وترون في صحاحكم أن كل البشر عندما يولدون ـ بما فيهم نبينا محمد وكل الأنبياء ـ ينخسهم الشيطان نخسة ما عدا عيسى بن مريم والذي يفترض أن نبينا ﷺ أفضل وأكمل منه.

قاطعني قائلاً: كل ذلك ورد فيه أحاديث صحيحة، وتجادلنا ساعة وهو يحاول جاهداً إثبات صحة الأحاديث وتأكيد أن للنبي الأكرم ﷺ أخطاء في حياته.. عندما لم يقنع بكلامي حول هذه الروايات التي نعتبرها إسرائيليات تحاول النيل من مقام النبوة في شخص النبي محمد ﷺ أشهدت الحضور بخلاصة الحديث ـ وكانوا من أقربائه واصدقائه ـ وقلت: اشهدوا، أنا أحاول جاهداً تنزيه النبي ﷺ والأخ مصر على خلاف ذلك، صحيح يا جماعة؟! سكتوا موافقين ولم ينبس أحدهم ببنت شفة.

ثم قلت، فلننتقل إلى محور آخر... قال، إنكم تسيئون للصحابة.. وبدأ بعزف النغمة المعهودة... قلت له، لماذا تصرون على وضع الصحابة في قبال أهل البيت عليهم السلام ؟! إن الموضوعين مختلفان، فنحن نقول بأن أهل البيت عليهم السلام مختارون ومعينون من قبل الله تعالى كأئمة لهٰذا الأمة، والمقصود فئة محددة منهم وليس كلهم أجمعين، وهٰؤلاء معصومون عصمة يصح معها ائتمانهم على وحي الله وعزائم أمره.. أما الصحابة كمفهوم فقد ابتدع كحاجز لمنع انتقاد تصرفات بعض الصحابة والتي تخالف ما جاء به النبي الأكرم صلى الله عليه وآله بل إن بعضهم بمنطوق حديث الحوض المعروف(بينما أنا فرطكم في الحوض .....) سيرد بعضهم النار.. هنا ثارت ثائرة الأخ وبدأ بالدفاع المستميت عن كل الصحابة وكل أفعالهم.. فما أتيت له بحادثة خالف فيها بعض الصحابة صاحب الرسالة إلا ونفاها وأصر على أن الصحابي المعني أكبر من المستحيل أن يقوم بذٰلك، قلت له، عجيب أمرك، منذ قليل كنت تصر على عدم عصمة النبي صلى الله عليه وآله وتدعي صحة كل ما ورد من أحاديث تنسب الخطأ للرسول صلى الله عليه وآله (بصورة أو بأخرى)، وتدافع عن صحة معتقدك في هٰذا الأمر، وتأتي بما تحسبه أدلة وشواهد الواحد تلو الآخر ولا يرمش لك جفن، وعندما آتي لك بالأدلة

التي تؤكد بأنه ليس كل الصحابة عدولاً تصر على عكس ذلك، مما يدل على أن العقيدة عندك مقلوبة، فالنبي غير معصوم ويخطيء، والصحابة كلهم عدول، والمقصود عندكم من كلمة عدول يضاهي مفهوم العصمة.. ألاترى معي ذلك؟! سكت الأخ وكأنما ألقم حجراً ،ثم استدرك، أنا لا أقول أن الصحابة معصومون.. قلت له، إذاً يحق لي التعرض لسيرتهم ونقد بعض التصرفات.. فسكت، فلم أشأ إحراجه أكثر من ذلك وقلت له.. أرجو أن ترجع إلى نور عقلك ووجدانك، وابدأ في تقييم معتقداتك بعيداً عن قوى الضغط حينها سترى الحق حقاً..

نعم عزيزي القارىء، هكذا هي العقيدة المقلوبة، يلوموننا عندما نطهّر أناساً طهرهم الله تعالى من الذنب ،ويعيبون علينا النقد وإعمال علم الجرح والتعديل في كل الطبقات ابتداءً فيمن كان حول الرسول صلى الله عليه وآله لنعلم من اتبع النبي ومن خالفه، وهٰذا هو منهج القرآن الكريم...

إن في جعبتنا الكثير الذي يدل على ولاية أهل البيت وإمامتهم وعصمتهم وميراثهم العلم والكتاب من رسول الله صلى الله عليه وآله ... وسيأتيك بيان ذلك.

أما التعيين للإمامة، والوصاية للخلافة، فقد بينا ذلك فيما سبق، ويدعم مدعانا معطيات العقل وسيرة العقلاء كما ذكرنا، وما قرأناه من سيرة النبي

الأعظم(ص) الذي ما ذهب لغزوة إلا وجعل على المدينة خليفة، فكيف به إذا فارق الدنيا وهو يخلف أعظم رسالة للبشر لا تعقبها رسالة؟!.وقد جاء في سيرة ابن هشام أن النبي ﷺ لما دعا بني عامر للإسلام وقد جاؤوا في موسم الحج إلى مكة قال رئيسهم: أرأيت إن نحن بايعناك على أمرك ثم أظهرك الله على من خالفك أيكون لنا الأمر من بعدك؟ قال النبي ﷺ «الأمر لله يضعه حيث يشاء»[1]

أما ما ذكروه من شورى لتعيين الإمامة فلا دليل عليه.. أي شورى تلك التي يتحدثون عنها ولم نجد لها أي تفصيل من رسول الله ﷺ حتى تخبط الناس في مفهومها، صحيح أن كلمة شورى وردت في القرآن، ولكن لم تكن أبداً لتعيين الخليفة، وقد ناقشنا ذلك في كتابنا (بنور فاطمة اهتديت)، وتعرض لها مفصلاً الشيخ معتصم في كتابه (الحقيقة الضائعة)، فمن أراد المزيد فليرجع إليها..

أهل البيت عليهم السلام هم الخلفاء المعصومون

حديث الثقلين

قال ﷺ: «إني أوشك أن أدعى فأجيب وإني تارك فيكم الثقلين كتاب

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص٤٢٤.

الله عزّ وجلّ وعترتي أهل بيتي، وإن اللطيف الخبير أخبرني أنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما).

هٰذا الحديث المتواتر في الواقع قطع الطريق تماماً على المشككين في خلافة وولاية أهل البيت عليهم السلام .. وقد مر الكلام عن تواتر الحديث وصحته، هٰذا الحديث يستبطن عدة حقائق نستعرضها في التالي.

ـ فهو يتحدث عن خلافة النبي صلى الله عليه وآله فالرسول صلى الله عليه وآله يعطى مقدمة بإعلان قرب رحيله ثم يشير أنه سيترك ـ وسيخلف ثقلين «كتاب الله وعترتي».. وهما العاصمان من الضلالة بعده، أما في حياته فهو الضمانة لهذه الأمة، لأنه صلى الله عليه وآله هو الذي ﴿يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ﴾ ولاستمرار هذه الضمانة بعد رحيل النبي صلى الله عليه وآله وحتى لا تضل الأمة خلّف رسول الله صلى الله عليه وآله القرآن ككتاب ورسالة، وأهل البيت كقيادة وإمامة..

ـ حتى يكون أهل البيت عدلاً للقرآن لا بد لهم من الإحاطة والعلم به (يعني أن يكونوا قرآناً ناطقاً) وعلى حسب كلام القرآن «يرثون الكتاب»..

ـ ويؤكد ذلك تعقيب النبي صلى الله عليه وآله بأن اللطيف الخبير أنبأني بأنهما لن يفترقا (الكتاب والعترة) وهٰذا يعني أمرين،

الأول، أنهم معصومون، فالذي لا يفترق عن القرآن (علماً وعملاً) فهو بلا شك من الذين لا يأتيهم الباطل من بين أيديهم ولا من خلفهم، والعاقل يدرك بأن (لن يفترقا) ليس المقصود منه أنهم سيحملون القرآن في أيديهم ويصطحبونه اصطحاباً مادياً.

الثاني، أن الخلافة فيهم إلى يوم القيامة (حتى يردوا علي الحوض).

- إن اختيارهم كان من الله اللطيف الخبير، واختيار هذين الاسمين الجليلين من أسماء الله الحسنى له دلالته، إذ أنه لطيف في تقديره وتدبيره الذي قد يخفى على الناس.. كما أنه الخبير بخبايا النفوس وخفاياها، والأعلم بما يصلح هذه الأمة، فالاختيار عن لطف وخبرة...

هٰذا الكلام نبسطه فيما سنورده من آيات جاءت حول أهل البيت عليهم السلام نختار بعضها لنزيد الرؤية وضوحاً.

قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أهل البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً﴾الأحزاب/ ٣٣.

أخرج مسلم في صحيحه، قالت عائشة «خرج النبي ﷺ غداة وعليه مُرْطٌ من شعر أسود فجاء الحسن بن علي فأدخله ثم جاء الحسين فدخل معه ثم جاءت فاطمة فأدخلها ثم جاء علي فأدخله ثم قال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ

لِيُذْهِبَ عَنكُـمُ الرِّجْسَ أهل البيت وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيـراً﴾[1].

أهل الكساء وأهل العبا كما هو معروف عندنا في السودان وعند كل المسلمين هم أهل البيت المعنيون بهذه الآية، رغم المحاولات اليائسة التي حاولت خلق ضبابية حول هذا الأمر بإدخال البعض (ومنهم الأزواج) داخل دائرة أهل البيت المقصودين في هذه الآية، مع أن أم سلمة التي روت هذه الرواية وكذلك عائشة لم يدعين هذا الادعاء، فما لكم كيف تحكمون؟! وسألت أم سلمة النبي ﷺ في بعض الروايات وتمنت الدخول تحت الكساء معهم، لكن النبي قال لها: لا ولكنك إلى خير.. بل ورد في صحيح مسلم أن زيد بن أرقم الذي روى هذا الحديث سئل: فمن أهل بيته؟ نساؤه؟ قال: لا وأيم الله إن المرأة تكون مع الرجل العصر من الدهر ثم يطلقها فترجع إلى أبيها وقومها.. أهل بيته أهله وعصبته. انتهى..

وعليٌّ وفاطمة والحسن والحسين هم أهل بيت النبي ﷺ والآية تعصمهم وتطهرهم تطهيراً، وتنسجم إرادة الله لتطهيرهم وإذهاب الرجس عنهم مع اختيارهم واصطفائهم للولاية والإمامة، وقد ذهب مذهب الشيعة في عصمتهم من خلال هذه الآية بعض أعلام التفسير كالزمخشري في

---

(١) سورة الأحزاب: الآية ١٣٣.

كشافه والرازي في تفسيره الكبير والطبري في تفسيره..وقد ذكرنا ذلك عند الحديث عن فاطمة عليها السلام.

ـ قال تعالى ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِن بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ الْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْاْ نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَةَ اللّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ آل عمران/ ٦١.

وقد مر الكلام عن هذه الآية في حديثنا عن الزهراء عليها السلام فيراجع.

ـ وقال تعالى ﴿قُل لاَّ أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْراً إِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ الشورى/٢٣.

القربى في هذه الآية كما ذكرنا هم أصحاب الكساء (علي وفاطمة والحسن والحسين)، عن ابن عباس، لما نزلت هذه الآية قالوا، يا رسول الله من قرابتك هؤلاء الذين وجبت علينا مودتهم؟ قال، «علي وفاطمة وولداهما»[1].

رغم تعرضي لتفسير هذه الآية من قبل ،إلا أنني ومشياً مع سياق بحثي لا بد من أن أقف عندها من جديد لاستيضاح الأمر أكثر. وأسأل، لماذا يجب علينا مودة قربى الرسول ﷺ الأنهم فقط أهل بيته؟.. لو كان الأمر

(١) راجع تفسير ابن كثير ١٢٢/٤، تفسير الطبري ١٦/٢٥، تفسير الزمخشري ٤٦٧/٣، تفسير القرطبي ٢٢/١٦، المستدرك ١٧٢/٣ وغيرها من المصادر

من شخص عادي لاحتملنا هٰذا الاحتمال، ولكنه قرآن كريم تنزيل من اللطيف الخبير، على لسان نبي عظيم لا ينطق ـ مطلقاً ـ عن الهوى، فالأمر إذاً جد عظيم بعظمة الرسالة لأنه أجر تلك الرسالة. فالرسول كغيره من الرسل لا يطلب أجراً على أداء أمانته الإلٰهية إلا إذا كان هٰذا الأجر من متعلقات تلك الأمانة، لذٰلك يوضح الله تعالى طبيعة ذٰلك الأجر على لسان نبيه ﴿مَا سَأَلْتُكُم مِّنْ أَجْرٍ فَهُوَ لَكُمْ﴾، فامتداد الرسالة كامن في إمامة ذوي القربى، فمن شاء اتخذ إلى ربه سبيلاً.

إنه نور الحق والحقيقة لذي عينين.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ الرعد/ ٧.

إذاً فالنبي منذر و لكل قوم هاد إلى يوم القيامة، فمن يختار المنذر هو من يختار لكل قوم هادياً جيلاً بعد جيل، حبل لا ينقطع إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها... ألا ينسجم كل ذٰلك مع بعضه البعض (حديث الثقلين ـ آية التطهير ـ آية المودة في القربى... الخ)؟ ألا تراها حلقات متصلة ما استطاع المنافقون على مر التاريخ النيل منها وإطفاء نورها؟..

فالهادي الذي نزلت فيه الآية (المصداق الأول) هو علي بن أبي طالب عليه السلام ومن بعده ذريته الطيبة إمام بعد إمام، وهاد يتلوه آخر، ويستمر نور التوحيد ووهج النبوة مشرقاً ما دامت السمٰوات والأرض..

وإليك مجموعة آيات أخرى نزلت في أهل البيت عليهم السلام وأترك للقارىء فرصة التدبر في دلالاتها لينطلق في رحاب الحقيقة.

١.قال تعالى ﴿وَاعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُواْ﴾ آل عمران/ ١٠٣.

ترجمها الشافعي في أبيات شعر فقال:

ولما رأيت الناس قد ذهبت بهم
مذاهبهم في أبحر الغي والجهل
ركبت على اسم الله في سفن النجا
وهم أهل بيت المصطفى خاتم الرسل
وأمسكت حبل الله وهو ولاؤهم
كما قد أمرنا بالتمسك بالحبل[1]

وفسرت الروايات حبل الله بآل البيت عليهم السلام، كما جاء في روح المعاني للآلوسي ٤/ ١٦ والصواعق المحرقة ٢/ ٤٤٤ وشواهد التنزيل للحسكاني... الخ.

٢.قال تعالى ﴿فَاسْأَلُواْ أهل الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ الأنبياء/ ٤٣.

(١) يوجد في رشفة الصادي، ابي بكر شهاب الدين الشافعي راجع شواهد التنزيل الحاكم الحسكاني ١/ ٣٠/ ١٧٧ ـ ١٧٠.

وأهل الذكر هم أهل البيت (بيت النبوة والوحي) [(١)].

٣.يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾التوبة/ ١١٩.

قال سبط بن الجوزي «قال علماء السير معناه كونوا مع علي وأهل بيته، قال ابن عباس: علي سيد الصادقين»[(٢)]

٤.قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيماً﴾ الأحزاب/ ٥٦.

لما نزلت هذه الآية قال الصحابة: يا رسول الله أما السلام عليك فقد عرفناه، فكيف الصلاة عليك؟ قال: «قولوا اللّهم صل على محمد وآل محمد كما صليت على إبراهيم آل إبراهيم إنك حميد مجيد، اللّهم بارك على محمد وآل محمد كما باركت على إبراهيم وعلى آل إبراهيم إنك حميد مجيد»[(٣)].

وقد قال الشافعي:

---

(١) راجع: تفسير القرطبي ٢٧٢/١١، تفسير الطبري ٧٥/١٤ تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩١ ... وغيرها.

(٢) تذكرة الخواص ص١٠، وراجع نزول الآية في آل البيت الدر المنثور ٣/ ٢٩٠، روح المعاني ٤١/١١ ينا بيع المودة ص١١٩...

(٣) راجع صحيح البخاري كتاب التفسير باب قوله إنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ صحيح مسلم كتاب الصلاة باب الصلاة على النبي بعد التشهد صحيح الترمذي ومسند احمد وموطا مالك.

يا آل بيت رسول الله حبكم فرض من الله في القرآن انزله
كفاكم من عظيم الشأن أنكم من لم يصل عليكم لا صلاة له

٥.واختم بقوله تعالى، ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُواْ وَعَمِلُواْ الصَّالِحَاتِ أُولَئِكَ هُمْ خَيْرُ الْبَرِيَّةِ﴾ سورة البينة/٧.

قال رسول الله ﷺ، «يا علي هم أنت وشيعتك»، وفي رواية زاد، هم الفائزون يوم القيامة[1].

الوحي (القرآن والسنة) يأخذ بأعناقنا إلى الفهم الصحيح لما ينبغي أن تسير عليه الأمور، والأدلة تنساب بسلاسة لنؤمن بالتشيع والولاء لأهل البيت عليهم السلام فهم الأحق والأجدر بولاية الأمر بعد النبي ﷺ ليتأتى القول الفصل وليس بالهزل ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ النساء/ ٥٩.

إنها الطاعة المطلقة، فطاعتهم في حقيقتها طاعة لله ولرسوله، يقول الفخر الرازي في تفسيره «إن الله تعالى أمر بطاعة أولي الأمر على سبيل الجزم في هذه الآية، ومن أمر الله بطاعته على سبيل الجزم والقطع لا بد

---

(١) راجع شواهد التنزيل الحاكم الحسكاني الحنفي ٢/٣٥٦ـ ٣٦٦ الصواعق المحرقة ابن حجر الشافعي ٢/٤٦٨، الدر المنثور السيوطي ٦/٣٧٩، تفسير الطبري ٣/١٤٦.

وأن يكون معصوماً عن الخطأ»[١].

وهٰذا الأمر باطنه وظاهره يحملان الرحمة والهدى لهٰذه الأمة إذ إن التمسك بأهل البيت هو العاصم لها من الضلالة والفتن..

لقد قالها النبي صلى الله عليه وآله «النجوم أمان لأهل الأرض من الغرق، وأهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتها قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس»[٢]. وذكرنا لك في الطائفة الثالثة بعض الأحاديث التي حددت الإمامة في أهل البيت عليهم السلام.

عدد الأئمة

هل هناك عدد معين للأئمة وتشخيص محدد ضمن دائرة أهل البيت عليهم السلام؟

الإجابة: نعم، فبعد تحديد الولاية والخلافة في أهل البيت عليهم السلام بقي علينا أن نتحدث عن عددهم الذي ادعت الشيعة أنهم اثنا عشر إماماً وخليفة، ومن هنا أطلق عليهم اسم الاثنى عشرية ـ ولقد ورد العدد في

(١) التفسير الكبير ٤/١١٢.

(٢) مستدرك الحاكم ٣/١٤٩ قال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه (الشيخين)، الصواعق المحرقة ٢/٤٤٥ وصححه منتخب كنز العمال بهامش مسند أحمد: ٥/٩٣... الخ.

مصادر أهل السنة والجماعة.. ولم يجدوا له تفسيراً ـ حسب مبانيهم بالطبع ـ فلقد روى مسلم قول النبي ﷺ «لا يزال الدين قائماً حتى تقوم الساعة أو يكون عليكم اثنا عشر خليفة كلهم من قريش»[1].

وعن سماك بن حرب قال، سمعت جابر بن سمرة يقول: سمعت رسول الله ﷺ يقول «لا يزال الإسلام عزيزاً إلى اثني عشر خليفة» ثم قال كلمة لم أفهمها، فقلت لأبي، ما قال؟ فقال «كلهم من قريش»[2]، إنهم اثنا عشر إماماً، وبتطابق العدد مع الروايات الجازمة والتي تلزمنا بالرجوع لأهل البيت عليهم السلام أصبح من غير الممكن أن يخرج هؤلاء الخلفاء الأثنا عشر عن دائرة أهل البيت عليهم السلام.

والأمر لا غموض فيه ولا لبس عند شيعة أهل البيت، ذلك بعد أن علمنا حقهم في الولاية والخلافة بعد رسول الله ﷺ وليس من المعقول أن يخرج هذا العدد خارج دائرتهم، وقد جاء في ينابيع المودة للقندوزي الحنفي الباب (٩٤) من المناقب بسنده عن جابر بن عبد الله الأنصاري قال: قال رسول الله ﷺ: «يا جابر إن أوصيائي وأئمة المسلمين من بعدي أولهم

---

(١) كتاب الإمارة باب الناس تبع لقريش والخلافة في قريش.

(٢) نفس المصدر.

علي ثم الحسن ثم الحسين ثم علي بن الحسين ثم محمد بن علي المعروف بالباقر ستدركه يا جابر فإذا لقيته فأقرئه مني السلام ثم جعفر بن محمد ثم موسى بن جعفر ثم علي بن موسى ثم محمد بن علي ثم علي بن محمد ثم الحسن بن علي ثم القائم اسمه اسمي وكنيته كنيتي محمد بن الحسن بن علي «المهدي» ذلك الذي يفتح الله تبارك وتعالى على يديه مشارق الأرض ومغاربها».

أما النصوص الواردة من مصادر الشيعة عن طريق أهل البيت عليهم السلام فهي متواترة وواضحة بخصوص هذا الشأن، ولم يدّعِ أحد من الأمة أنه أحد الأئمة الاثني عشر كما قال أهل البيت عليهم السلام عن أنفسهم، والتاريخ يخبرنا عن سيرتهم، بل أعداؤهم اعترفوا بمكانتهم السامية وعلمهم الغزير وأخلاقهم الرفيعة، ومن الأحاديث التي وردت عن أهل البيت عليهم السلام ماروي عن سيدة نساء العالمين فاطمة عليها السلام عن عَلِيِّ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ سَهْلٍ عَنْ أَبِي بَصِيرٍ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ قَالَ أَبِي لِجَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْأَنْصَارِيِّ إِنَّ لِي إِلَيْكَ حَاجَةً فَمَتَى يَخِفُّ عَلَيْكَ أَنْ أَخْلُوَ بِكَ فَأَسْأَلَكَ عَنْهَا فَقَالَ لَهُ جَابِرٌ أَيَّ الْأَوْقَاتِ أَحْبَبْتَهُ، فَخَلَا بِهِ فِي بَعْضِ الْأَيَّامِ فَقَالَ لَهُ يَا جَابِرُ أَخْبِرْنِي عَنِ اللَّوْحِ الَّذِي رَأَيْتَهُ فِي يَدِ أُمِّي فَاطِمَةَ عليها السلام بِنْتِ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وآله وَمَا أَخْبَرَتْكَ بِهِ أُمِّي

أَنَّهُ فِي ذلك اللَّوْحِ مكتوبٌ، فقالَ جابرٌ: أَشْهَدُ بِاللهِ أَنّي دَخَلْتُ عَلَى أُمِّكَ فاطمَةَ عليها السلام فِي حَيَاةِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله فَهَنَّيْتُهَا بِوِلادَةِ الْحُسَيْنِ وَرَأَيْتُ فِي يَدَيْهَا لَوْحاً أَخْضَرَ ظَنَنْتُ أَنَّهُ مِنْ زُمُرُّدٍ، وَرَأَيْتُ فِيهِ كِتَاباً أَبيَضَ شِبْهَ لَوْنِ الشَّمْسِ، فَقُلْتُ لَهَا بِأَبِي وَأُمِّي يَا بِنْتَ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وآله مَا هَذَا اللَّوْحُ؟ فَقَالَتْ: هَذَا لَوْحٌ أَهْدَاهُ اللَّهُ إِلَى رَسُولِهِ صلى الله عليه وآله فيه اسم أَبِي وَاسْمُ بَعْلِي وَاسْمُ ابْنَيَّ وَاسْمُ الأَوْصِيَاءِ مِنْ وُلْدِي، وَأَعْطَانِيهِ أَبِي لِيُبَشِّرَنِي بِذَلِك، قَالَ جَابِرٌ: فَأَعْطَتْنِيهِ أُمُّكَ فَاطِمَةُ عليها السلام فَقَرَأْتُهُ وَاسْتَنْسَخْتُهُ، فَقَالَ لَهُ أَبِي: فَهَلْ لَكَ يَا جَابِرُ أَنْ تَعْرِضَهُ عَلَيَّ؟ قَالَ نَعَمْ فَمَشَى مَعَهُ أَبِي إِلَى مَنْزِلِ جابِرٍ فَأَخْرَجَ صَحِيفَةً مِنْ رَقٍّ فَقَالَ يَا جَابِرُ انْظُرْ فِي كِتَابِكَ لأَقْرَأَ أَنَا عَلَيْكَ، فَنَظَرَ جَابِرٌ فِي نُسْخَته فَقَرَأَهُ أَبِي فَمَا خَالَفَ حَرْفٌ حَرْفاً فقالَ جابِرٌ: فَأَشْهَدُ بِاللَّهِ أَنِّي هَكَذَا رَأَيْتُهُ فِي اللَّوْحِ مَكْتُوباً ، بِسْمِ اللَّهِ الرحْمنِ الرَّحِيمِ هَذَا كِتَابٌ مِنَ اللّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ لِمُحَمَّدٍ نَبِيِّهِ وَنُورِهِ وَسَفِيرِهِ وَحِجَابِهِ وَدَلِيلِه نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الأَمينُ مِنْ عِنْدِ رَبِّ الْعَالَمِينَ عَظِّمْ يَا مُحَمَّدُ أَسْمَائِي وَاشْكُرْ نَعْمَائِي وَلا تَجْحَدْ آلائِي إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إله إلا أنَا قَاصِمُ الْجَبَّارِينَ وَمُدِيلُ الْمَظْلُومِينَ وَدَيَّانُ الدِّينِ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لا إله إلا أَنَا فَمَنْ رَجَا غَيْرَ فَضْلِي أَوْ خَافَ غَيْرَ عَدْلِي عَذَّبْتُهُ عَذَاباً لا أُعَذِّبُهُ أَحَداً مِنَ الْعَالَمِينَ فَإِيَّايَ فَاعْبُدْ وَعَلَيَّ فَتَوَكَّلْ إِنِّي لَمْ أَبْعَثْ نَبِيّاً

فَأكْمِلَتْ أيّامُهُ وَانقَضَتْ مُدَّتُهُ إلا جَعَلْتُ لَهُ وَصِيّاً وَإنّي فضَّلْتُكَ عَلَى الأنبياء وَفَضَّلْتُ وَصِيَّكَ عَلَى الأوْصِيَاءِ وَأكْرَمْتُكَ بِشِبْلَيْكَ وَسِبْطَيْكَ حَسَنٍ وَحُسَيْنٍ فَجَعَلْتُ حَسَناً مَعْدِنَ عِلْمِي بَعْدَ انْقِضَاءِ مُدَّةِ أَبِيهِ وَجَعَلْتُ حُسَيْناً خَازِنَ وَحْيِي وَأَكْرَمْتُهُ بِالشَّهَادَةِ وَخَتَمْتُ لَهُ بِالسَّعَادَةِ فَهُوَ أفضل مَنِ اسْتُشْهِدَ وَأَرْفَعُ الشُّهَدَاءِ دَرَجَةً جَعَلْتُ كَلِمَتِيَ التَّامَّةَ مَعَهُ وَحُجَّتِيَ الْبَالِغَةَ عِنْدَهُ بِعِتْرَتِهِ أُثِيبُ وَأُعَاقِبُ أَوَّلُهُمْ عَلِيٌّ سَيِّدُ الْعَابِدِينَ وَزَيْنُ أَوْلِيَائِيَ الْمَاضِينَ وَابْنُهُ شِبْهُ جَدِّهِ الْمَحْمُودِ مُحَمَّدٌ الْبَاقِرُ عِلْمِي وَالْمَعْدِنُ لِحِكْمَتِي سَيَهْلِكُ الْمُرْتَابُونَ فِي جَعْفَرٍ الرَّادُّ عَلَيْهِ كَالرَّادِّ عَلَيَّ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأُكْرِمَنَّ مَثْوَى جَعْفَرٍ وَلأَسُرَّنَّهُ فِي أَشْيَاعِهِ وَأَنْصَارِهِ وَأَوْلِيَائِهِ، وَانْتُجِبَتْ بعده موسى، أُتِيحَتْ بَعْدَهُ فِتْنَةٌ عَمْيَاءُ حِنْدِسٌ لأَنَّ خَيْطَ فَرْضِي لا يَنْقَطِعُ وَحُجَّتِي لا تَخْفَى وَأَنَّ أَوْلِيَائِي يُسْقَوْنَ بِالْكَأْسِ الأوْفَى مَنْ جَحَدَ وَاحِداً مِنْهُمْ فَقَدْ جَحَدَ نِعْمَتِي وَمَنْ غَيَّرَ آيَةً مِنْ كِتَابِي فَقَدِ افْتَرَى عَلَيَّ وَيْلٌ لِلْمُفْتَرِينَ الْجَاحِدِينَ عِنْدَ انْقِضَاءِ مُدَّةِ مُوسَى عَبْدِي وَحَبِيبِي وَخِيَرَتِي فِي عَلِيٍّ وَلِيِّي وَنَاصِرِي وَمَنْ أَضَعُ عَلَيْهِ أَعْبَاءَ النُّبُوَّةِ وَأَمْتَحِنُهُ بِالاضْطِلاعِ بِهَا يَقْتُلُهُ عِفْرِيتٌ مُسْتَكْبِرٌ يُدْفَنُ فِي الْمَدِينَةِ الَّتِي بَنَاهَا الْعَبْدُ الصَّالِحُ إِلَى جَنْبِ شَرِّ خَلْقِي حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لأَسُرَّنَّهُ بِمُحَمَّدٍ ابْنِهِ وَخَلِيفَتِهِ مِنْ بَعْدِهِ وَوَارِثِ عِلْمِهِ فَهُوَ مَعْدِنُ عِلْمِي وَمَوْضِعُ سِرِّي

وَحُجَّتِي عَلَى خَلْقِي لا يُؤْمِنُ عَبْدٌ بِهِ إلا جَعَلْتُ الْجَنَّةَ مَثْوَاهُ وَشَفَّعْتُهُ فِي سَبْعِينَ مِنْ أهل بَيْتِهِ كُلُّهُمْ قَدِ اسْتَوْجَبُوا النَّارَ وَأَخْتِمُ بِالسَّعَادَةِ لِابْنِهِ عَلِيٌّ وَلِيِّي وَنَاصِرِي وَالشَّاهِدِ فِي خَلْقِي وَأَمِينِي عَلَى وَحْيِي أُخْرِجُ مِنْهُ الدَّاعِيَ إِلَى سَبِيلِي وَالْخَازِنَ لِعِلْمِيَ الْحَسَنَ وَأُكْمِلُ ذلك بِابْنِهِ مـحـمد رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ عَلَيْهِ كَمَالُ مُوسَى وَبَهَاءُ عِيسَى وَصَبْرُ أَيُّوبَ فَيُذَلُّ أَوْلِيَائِي فِي زَمَانِهِ وَتُتَهَادَى رُؤوسُهُمْ كَمَا تُتَهَادَى رُؤوسُ التُّرْكِ وَالدَّيْلَمِ فَيُقْتَلُونَ وَيُحْرَقُونَ وَيَكُونُونَ خائِفِينَ مَرْعُوبِينَ وَجِلِينَ تُصْبَغُ الأرض بِدِمَائِهِمْ وَيَفْشُو الْوَيْلُ وَالرَّنَّةُ فِي نِسَائِهِمْ اولئك أَوْلِيَائِي حَقّاً بِهِمْ أَدْفَعُ كُلَّ فِتْنَةٍ عَمْيَاءَ حِنْدِسٍ وَبِهِمْ أَكْشِفُ الزَّلازِلَ وَأَدْفَعُ الآصَارَ وَالأغْلالَ اولئك عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِنْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَاولئك هُمُ الْمُهْتَدُونَ. قَالَ عَبْدُ الرحمٰنِ بْنُ سَالِمٍ قَالَ أَبُو بَصِيرٍ لَوْ لَمْ تَسْمَعْ فِي دَهْرِكَ إلا هٰذَا الْحَدِيثَ لَكَفَاكَ.

بلى إنهم عترة المصطفى ﷺ «فأين تذهبون وأنى تؤفكون والأعلام قائمة والآيات واضحة والمنار منصوب فأين يتاه بكم» إنها كلمات أمير المؤمنين ووصي رسول رب العالمين وخليفته وأبي الأئمة فلنستلهم منه هدى..

قال علي عليه السلام: «انظروا أهل بيت نبيكم فالزموا سمتهم واقتفوا أثرهم فلن يخرجوكم من هدى ولن يعيدوكم في ردى، فإن لبدوا فالبدوا وإن

نهضوا فانهضوا، ولا تستبقوهم فتضلوا ولا تتأخروا عنهم فتهلكوا»[١].

«أين الذين زعموا أنهم الراسخون في العلم دوننا، كذباً وبغياً علينا، أن رفعنا الله ووضعهم وأعطانا وحرمهم وأدخلنا وأخرجهم، بنا يستعطى الهدى ويستجلى العمى، إن الأئمة من قريش غرسوا في هذا البطن من هاشم، لا تصلح على سواهم ولا تصلح الولاة من غيرهم»[٢].

وقال في أهل البيت عليهم السلام: «هم موضع سره ولجأ أمره وعيبة علمه وموئل حكمه وكهوف كتبه»[٣].

ولقد ورد حديث سمّيَ بحديث السلسلة الذهبية عن الإمام الرضا عليه السلام وهو علي بن موسى الكاظم بن جعفر الصادق بن محمد الباقر بن علي زين العابدين بن الحسين بن علي بن أبي طالب يبين فيه إختصاصهم بالإمامة ويشير إلى ارتباط الإمامة الجوهري بالتوحيد قال: حدثني أبي عن ابيه جعفر الصادق عن أبيه محمد الباقر عن أبيه علي زين العابدين عن أبيه الحسين بن علي عن أبيه علي بن أبي طالب عليهم السلام عن رسول الله عن جبريل عليه السلام عن الله تعالى قال: ﴿لا إله إلا الله حصني ومن دخل حصني أمن

(١) نهج البلاغة محمد عبده ٢/١٩.

(٢) المصدر السابق ٢/٥٥.

(٣) المصدر السابق ١/٢٩ ـ ٣٠.

عذابي﴾ ثم أدخل الإمام الرضا رأسه برهة، ثم أخرجه قائلاً: (ولكن بشرطها وشروطها وأنا من شروطها).

وإليك هذه الرواية عن الإمام الرضا أيضاً عليه السلام والتي تبين عظمة شأن الإمامة وقدرها :

عبد العزيز بن مسلم قال كنا في أيام علي بن موسى الرضا عليه السلام بمرو فاجتمعنا في مسجد جامعها في يوم جمعة في بدء مقدمنا، فأدار الناس أمر الإمامة وذكروا كثرة اختلاف الناس فيها، فدخلت على سيدي ومولاي الرضا عليه السلام فأعلمته ما خاض الناس فيه، فتبسم ثم قال يا عبد العزيز جهل القوم وخدعوا عن أديانهم إن الله تبارك وتعالى لم يقبض نبيه صلى الله عليه وآله حتى أكمل له الدين، وأنزل عليه القرآن فيه تفصيل كل شيء، بين فيه الحلال والحرام والحدود والأحكام وجميع ما يحتاج إليه الناس كاملاً فقال عزّ وجلّ: ﴿ما فَرَّطْنا فِي الْكِتابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ وأنزل في حجة الوداع وهي آخر عمره صلى الله عليه وآله ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِيناً﴾ فأمر الإمامة من تمام الدين، ولم يمض عليه السلام حتى بين لأمته معالم دينه وأوضح لهم سبله وتركهم على قصد الحق/// وأقام لهم علياً عليه السلام علماً وإماماً، وما ترك شيئاً تحتاج إليه الأمة إلا بينه، فمن زعم أن

الله عزّ وجلّ لم يكمل دينه فقد رد كتاب الله عزّ وجلّ، ومن رد كتاب الله فهو كافر، هل يعرفون قدر الإمامة ومحلها من الأمة فيجوز فيها اختيارهم؟ إن الإمامة أجل قدراً وأعظم شأناً وأعلى مكاناً وأمنع جانباً وأبعد غوراً من أن يبلغوها بعقولهم أو ينالوها بآرائهم، أو يقيموا إماماً باختيارهم، إن الإمامة خص الله عزّ وجلّ بها إبراهيم الخليل عليه السلام بعد النبوة والخلة مرتبة ثالثة وفضيلة شرفه بها وأشاد بها ذكره، فقال عزّ وجلّ: ﴿إِنِّي جاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِماماً﴾ فقال الخليل عليه السلام سروراً بها ﴿وَمِنْ ذُرِّيَّتِي﴾ قال الله عزّ وجلّ ﴿لا يَنالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ﴾ فأبطلت هذه الآية إمامة كل ظالم إلى يوم القيامة، وصارت في الصفوة، ثم أكرمه الله بأن جعلها في ذريته أهل الصفوة والطهارة، فقال عزّ وجلّ ﴿وَوَهَبْنا لَهُ إِسْحاقَ وَيَعْقُوبَ نافِلَةً وَكُلًّا جَعَلْنا صالِحِينَ وَجَعَلْناهُمْ أئمة يَهْدُونَ بِأَمْرِنا وَأَوْحَيْنا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْراتِ وَإِقامَ الصَّلاةِ وَإِيتاءَ الزَّكاةِ وَكانُوا لَنا عابِدِينَ﴾ فلم تزل في ذريته يرثها بعض عن بعض قرناً فقرناً حتى ورثها النبي صلى الله عليه وآله فقال الله جل جلاله ﴿إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبراهيم لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ﴾ فكانت له خاصة فقلدها صلى الله عليه وآله علياً عليه السلام بأمر الله عزّ وجلّ على رسم ما فرضها الله، فصارت في ذريته الأصفياء الذين آتاهم الله العلم والإيمان، بقوله عزّ وجلّ

﴿وَقالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإيمان لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتابِ اللَّهِ إِلى يَوْمِ الْبَعْثِ﴾ فهي في ولد علي عليه السلام خاصة إلى يوم القيامة، إذ لا نبي بعد محمد صلى الله عليه وآله فمن أين يختار هؤلاء الجهال؟ إن الإمامة هي منزلة الأنبياء وإرث الأوصياء، إن الإمامة خلافة الله عزّ وجلّ وخلافة الرسول ،ومقام أمير المؤمنين وميراث الحسن والحسين عليهما السلام إن الإمامة زمام الدين ونظام المسلمين وصلاح الدنيا وعز المؤمنين، إن الإمامة أس الإسلام النامي وفرعه السامي، بالإمام تمام الصلاة والزكاة والصيام والحج والجهاد، وتوفير الفيء والصدقات، وإمضاء الحدود والأحكام، ومنع الثغور والأطراف، والإمام يحلل حلال الله ويحرم حرام الله، ويقيم حدود الله، ويذب عن دين الله، ويدعو إلى سبيل ربه بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ والحجة البالغة، الإمام كالشمس الطالعة للعالم، وهي في الأفق بحيث لا تناله الأيدي والأبصار، الإمام البدر المنير والسراج الزاهر والنور الساطع والنجم الهادي في غياهب الدجى والبلد القفار ولجج البحار، الإمام الماء العذب على الظمإ والدال على الهدى والمنجي من الردى، الإمام النار على اليفاع الحار لمن اصطلى به، والدليل في المهالك من فارقه فهالك، الإمام السحاب الماطر والغيث الهاطل والشمس المضيئة والسماء الظليلة والأرض البسيطة والعين الغزيرة والغدير

لهم باختيار الإمام والإمام عالم لا يجهل، داعٍ لا ينكل، معدن القدس والطهارة والنسك والزهادة والعلم والعبادة، مخصوص بدعوة الرسولﷺ وهو نسل المطهرة البتول، لا مغمز فيه في نسب ولا يدانيه ذو حسب، في البيت من قريش والذروة من هاشم، والعترة من آل الرسول والرضا من الله، شرف الأشراف والفرع من عبد مناف، نامي العلم كامل الحلم، مضطلع بالإمامة عالم بالسياسة، مفروض الطاعة قائم بأمر الله ناصح لعباد الله حافظ لدين الله.

إن الأنبياء والأئمة عليهم السلام يوفقهم الله ويؤتيهم من مخزون علمه وحكمه ما لا يؤتيه غيرهم، فيكون علمهم فوق كل علم أهل زمانهم، في قوله تبارك وتعالى ﴿أَ فَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمَّنْ لا يَهِدِّي إِلا أَنْ يُهْدى فَما لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾ وقوله عزّ وجلّ ﴿وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً﴾ وقوله عزّ وجلّ في طالوت ﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفاهُ عَلَيْكُمْ وَزادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشاءُ وَاللَّهُ واسِعٌ عَلِيمٌ﴾ وقال عزّ وجلّ لنبيهﷺ ﴿وَكانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيماً﴾ وقال عزّ وجلّ في فضل الأئمة من أهل بيت النبي وعترته وذريته ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلى ما آتاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنا آلَ إِبْراهِيمَ الْكِتابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْناهُمْ مُلْكاً

عَظِيماً فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ بِهِ وَمِنْهُمْ مَنْ صَدَّ عَنْهُ وَكَفى بِجَهَنَّمَ سَعِيراً﴾، وإن العبد إذا اختاره الله عزّ وجلّ لأمور عباده شرح صدره لذلك، وأودع قلبه ينابيع الحكمة وألهمه العلم إلهاماً فلم يَعْيَ بعده بجواب، ولا يحير فيه عن الصواب، وهو معصوم مؤيد موفق مسدد، قد أمن الخطايا والزلل والعثار، يخصه الله عزّ وجلّ بذلك ليكون حجته على عباده وشاهده على خلقه، ﴿وذلك فَضْلُ اللّهِ يُؤْتِيهِ مَنْ يَشاءُ وَاللّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ﴾، فهل يقدرون على مثل هذا فيختاروه، أو يكون مختارهم بهذه الصفة فيقدموه، تعدّوا وبيت الله الحق، ونبذوا كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون، وفي كتاب الله الهدى والشفاء، فنبذوه واتبعوا أهواءهم فذمّهم الله ومقتهم وأتعسهم، فقال عزّ وجلّ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنِ اتَّبَعَ هَواهُ بِغَيْرِ هُدىً مِنَ اللّهِ إِنَّ اللّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظّالِمِينَ﴾، وقال عزّ وجلّ ﴿فَتَعْساً لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمالَهُمْ﴾ وقال عزّ وجلّ كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللّهِ وَعِنْدَ الَّذِينَ آمَنُوا كَذلِك يَطْبَعُ اللّهُ عَلى كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبّارٍ﴾.

وهم كما جاء في الأحاديث سالفة الذكر،

١. علي بن أبي طالب عليه السلام.

٢. الحسن بن علي عليهما السلام.

٣. الحسين بن علي عليهما السلام.

٤. ثم ابنه علي بن الحسين الملقب بزين العابدين والسجاد عليه السلام.

٥. ثم ابنه محمد بن علي الملقب بالباقر عليه السلام.

٦. ثم ابنه جعفر بن محمد الملقب بالصادق عليه السلام.

٧. ثم ابنه موسى بن جعفر الملقب بالكاظم عليه السلام.

٨. ثم ابنه علي بن موسى الملقب بالرضا عليه السلام.

٩. ثم ابنه محمد بن علي الملقب بالجواد عليه السلام.

١٠. ثم ابنه علي بن محمد الملقب بالهادي عليه السلام.

١١. ثم ابنه الحسن بن علي الملقب بالعسكري عليه السلام.

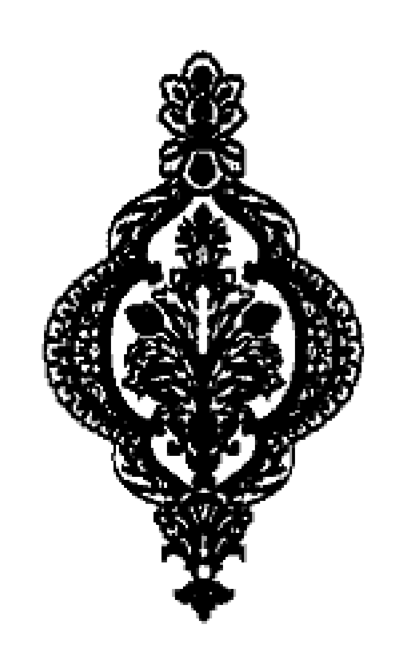
١٢. ثم ابنه محمد بن الحسن ويدعى المهدي والقائم والحجة عليه السلام.

هؤلاء هم أولوا الأمر الذين فرض الله علينا طاعتهم في القرآن ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَطِيعُواْ اللّهَ وَأَطِيعُواْ الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ﴾ وعرفنا منزلتهم ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِن بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (سورة آل عمران: آية/٣٤).



الفصل الرابع

قبس من نور آل محمد عليهم السلام




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

شذرات من علوم أهل البيت عليهم السلام

كثيرة هي الأمور التي شوهها أعداء الشيعة وعرضوها بصورة منفرة تنطلي على البسطاء، وتحاك من قبل البعض الذي لا يريد لنور الهداية أن يعم الكل، وهي عبارة عن شبهات تلتبس على البعض فيخرج الشيعة من الملة دون روية وتثبت، وما يعجبني ويزيد قناعتي بالتشيع وبأهل البيت عليهم السلام أنهم لم يتركوا خلفهم حجة في أي جزء من جزئيات الرسالة إلا وبينوها وأحسنوا تفصيلها، كيف لا وهم ورثة العلم وأبواب الهدى وموئل حكمة الله تعالى.. وفي هذه العجالة أحاول أن أوضح بعض المفاهيم بشكل سليم يتوافق تماماً مع العقل وبصائر الوحي، وإن كانت مساحة الكتاب غير كافية لاستيعاب الرد على كل الشبهات التي تثار، إلا أن غرضنا الرئيسي من مجمل الكتاب إيجاد المنهجية الحقة لتقييم كل الأفكار..

وسنتناول في هٰذا الوجيز مسألة ترتبط بالتوحيد وهي (البداء)، ثم

نتحدث عن بعض المواصفات التي نعتقد بتوفرها في النبي صلى الله عليه وآله وأهل بيته ،ويراها الآخرون نوعاً من الغلو.

البداء

«والبداء شبهة من الشبهات التي يثيرها خصوم الإمامية ضدهم بدافع التقليد لمذاهبهم، من غير أن يتعمقوا في درس الأدلة التي فهم منها الشيعة الإمامية ما ذهبوا إليه ولا المفهوم الذي قصدوه منه، بل بالغ خصوم الشيعة في توجيه النقد إليهم والتشنيع عليهم بسببه، حتى غدا البداء واحداً من الفوارق المذهبية التي باعدت بين الإمامية وبين سواهم»[1].

وامتطى هذه الموجة (التهجم على الشيعة) الكثير الكثير من شذاذ الآفاق من دون هدى ولا كتاب منير.. والبداء كحقيقة عقائدية يتعاطاها كل الموحدين مع كل نفس من أنفاس حياتهم، بل هو عمق التوحيد.. لذلك ورد عن أئمة أهل البيت عليهم السلام ما يؤكد على أهمية البداء ويذكّر بعظيم شأنه، فلقد ورد عن الإمام الصادق عليه السلام : «ما عُبِدَ الله بشيء مثل البداء»،.

---

(١) إسلامنا — مصطفى الرافعي ص٢١٠

وعنه عليه السلام: «ما عُظِّمَ الله عزّ وجلّ بمثل البداء»[1] وقال الإمام الصادق عليه السلام: «لو يعلم الناس ما في البداء من الأجر ما فتروا عن الكلام فيه».

أما كيف فهم «الجماعة» المقصود بالبداء عندنا.. قالوا: الشيعة تقصد بالبداء الظهور لله ما كان خافياً عنه، لأن البداء ظهور بعد الخفاء، مما يستوجب وصف الله بالجهل ـ والعياذ بالله ـ فالبداء هو تغيير حكم (في عالم التكوين)، وعادة يكون التغيير نتيجة جهل... هٰذا ملخص فهمهم الساذج للبداء الذي تؤمن به الشيعة ،ونحن نقول كما قال الإمام الصادق: «من زعم أن الله تعالى بدا له في شيء بداء ندامة فهو عندنا كافر بالله العظيم، وقال: «من زعم أن الله بدا له في شيء ولم يعلمه أمس فأبرأ منه».

فما هو البداء؟

حقيقة البداء تتجلى في هذه الآيات الكريمة:

ـ قوله تعالى: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللّهِ مَغْلُولَةٌ غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُواْ بِمَا قَالُواْ بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ يُنفِقُ كَيْفَ يَشَاءُ﴾ المائدة/ ٦٤.

ـ وقوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾الرعد/٣٩.

ـ وقوله ﴿فَعَّالٌ لِّمَا يُرِيدُ﴾ البروج/ ١٦.

إن الآية الأولى تتحدث عن اليهود الذين يرون أن الله قد خلق وقدر و فرغ من الأمر فلا يزيد ولا ينقص، فجاءت الآية في معرض تكذيب قولهم

والتأكيد على أن قدرة الله ومالكيته حاكمة في كل زمان ومكان، فإذا أراد شيئاً فإنما يقول له كن فيكون، وذلك ما تشير إليه الآية الثانية فتؤكد فاعلية مشيئته تعالى في المحو والإثبات، فهو قادر على تغيير ما كان مكتوباً ومحوه، وإثبات ما لم يكن مكتوباً، وهذا لعمري عين التوحيد، فهو تعالى عالم قادر فعّال لما يريد، فكيف يكون إثبات ذلك لله تعالى كفراً ولصقاً لصفة سالبة لقدسه وجلاله؟!..

هذا هو معنى البداء عند الشيعة، فالله الذي كتب وقدر وهو المالك القدير القيوم له القدرة "والحق" في تبديل وتغيير ما كتب، كل ذلك بعلمه وحكمته أيضاً وبتقدير جديد، وهذا هو السر الظاهر والباطن في البداء، ومن هذا (يُعْلَمُ أن إنكار البداء الذي هو آية كونه سبحانه قادراً ومالكاً إنكار لعين القدرة والمالكية، فما عُظِّمَ الله بمثل البداء، وهو سبحانه يملك من الأنام ما يشاء ولا يملكون منه إلا ما يريد) [1]، فالبداء منه تعالى لا يكون إلا عن علم ،ضرورة أن البداء تبديل التقدير الأول بالتقدير الثاني منه تعالى، وحيث أن كلا التقديرين لا يكون إلا عن مشيئة وإرادة وقدر وقضاء، وكل ذلك من أفعاله الحكيمة الحسنة المستندة إلى علمه تعالى.

---

(١) توحيد الإمامية للميانجي ٣٩٣.

وكل المسلمين يؤمنون بهذا البداء، وإليك بعض الآثار التي وردت في كتب أهل السنة والجماعة، فقد أخرج عبد بن حميد وابن جرير وابن المنذر عن عمر بن الخطاب أنه قال وهو يطوف بالبيت، «اللّهم إن كنت كتبت علي شقاوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب فاجعله سعادة ومغفرة»[1].

وعن ابن عباس قال، «لا ينفع الحذر من القدر، ولكن الله يمحو ما يشاء من القدر»[2].

وهذا إيمان الجميع فلماذا يشنعون على الشيعة؟!.. أصلاً لولا البداء لما كان الدعاء.. ألم يأمرنا المولى عزّ وجلّ أن ندعوه خوفاً وطمعاً ووعدنا بالإجابة؟! فلو لم يكن هنالك إمكانية في التغيير وإثبات شيء جديد غير الذي كتب لأصبح الدعاء عبثاً... من هنا كان الدعاء مخ العبادة، إنه التسليم المطلق لقدرته تعالى المطلقة ورحمته الواسعة، بل كل أعمالنا وطاعاتنا على أمل أن تمحي أسماؤنا من لائحة الأشقياء ويثبتها الله في قائمة السعداء.. ألا تجد معي عزيزي القارئ أن التوحيد بلا يقين بالبداء سفسطة

(١) الدر المنثور السيوطي ٤/٦٦١.
(٢) مستدرك الحاكم ٢/٣٥ وصححه.

وهراء؟، ألا تجده في صحيح مسلم عندما نقل عن أنس بن مالك قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول «من سره أن يبسط عليه رزقه أو ينسأ في أثره فليصل رحمه»؟، ألا تعتقد بأن الصدقة ترد القضاء؟! ألا تدعو الله صباح مساء لتغيير حالك؟ فإذا كان الله قد فرغ من الأمر، والمقدر لا يتغيير، فلماذا التعب والنصب في كل حياتنا.؟.

والمسلمون يتعاملون بفطرتهم التي لم تنجسها الجاهلية بخزعبلاتها، فيدعون لبعضهم البعض بطول العمر لأن الله فعال لما يريد، بيده الخير وهو كل شيء قدير، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىَ أَجَلاً وَأَجَلٌ مُّسمًّى عِندَهُ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾ الأنعام/٢

فهناك إذاً اجلان، وقد سئل الإمام الصادق عن هذه الآية (بخصوص الأجل والأجل المسمى قال: المسمى ما سمي لملك الموت في تلك الليلة، وهو الذي قال الله: (إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون) وهو الذي سمي لملك الموت في ليلة القدر، والآخر له فيه المشيئة، إن شاء قدمه وإن شاء أخره[1]، يعني أن هناك مساحة يتحرك فيها هذا الأجل، والإنسان بعمله بإمكانه أن يقدمه ويؤخره، ولا أظنني أحتاج إلى المزيد

---

(١) تفسير العياشي: ١/ ٣٥٤.

لإيضاح مفهوم البداء عند الشيعة، الذي يعطيك بصيرة نافذة إذا أيقنت به ـ للتعامل مع الحياة والارتباط بالله تعالى.

بقي لنا أن نشير إلى أن هناك خصوصيات لبعض التقديرات الإلهية لا يتغير فيها الحكم، ومثال ذلك الوعود الإلهية التي كتب على نفسه تحقيقها، والإخبار بحوادث المستقبل من الأنبياء، فتغييرها يستدعي تكذيبهم فتأمل..

بعض الروايات عن أهل البيت عليهم السلام حول البداء:

عن جعفر بن علي بن أحمد الفقيه عن حسن بن محمد بن علي بن صدقة عن محمد بن عمر بن عبد العزيز عمن سمع الحسن بن محمد النوفلي يقول: قال الإمام الرضا عليه السلام لسليمان المروزي: ما أنكرت من البداء يا سليمان والله عزّ وجلّ يقول ﴿أَوَلا يَذْكُرُ الإنسان أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ قَبْلُ وَلَمْ يَكُ شَيْئاً﴾ ويقول عزّ وجلّ ﴿وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ﴾ ويقول ﴿بَدِيعُ السَّماواتِ وَالأَرضِ﴾ ويقول عزّ وجلّ ﴿يَزِيدُ فِي الْخَلْقِ ما يَشاءُ ويقول وَبَدَأَ خَلْقَ الإنسان مِنْ طِينٍ﴾ ويقول عزّ وجلّ ﴿وَآخَرُونَ مُرْجَوْنَ لأَمْرِ اللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ﴾ ويقول عزّ وجلّ ﴿وَما يُعَمَّرُ مِنْ مُعَمَّرٍ وَلا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلا فِي كِتابٍ﴾ قال سليمان: هل رويت فيه عن

آبائك شيئاً؟ قال: نعم رويت عن أبي عن أبي عبد الله عليه السلام أنه قال: إن لله عزّ وجلّ علمين علماً مخزوناً مكنوناً لا يعلمه إلا هو، من ذلك يكون البداء، وعلماً علمه ملائكته ورسله، فالعلماء من أهل بيت نبيك يعلمونه، قال سليمان: أحب أن تنزعه لي من كتاب الله عزّ وجلّ، قال: قول الله عزّ وجلّ لنبيه ﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ فَما أَنْتَ بِمَلُومٍ﴾ اراد أهلاكهم، ثم بدا فقال: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ قال سليمان: زدني جعلت فداك، قال الرضا عليه السلام لقد أخبرني أبي عن آبائه أن رسول الله صلى الله عليه وآله قال: إن الله عزّ وجلّ أوحي إلى نبي من أنبيائه أن أخبر فلان الملك إني متوفيه إلى كذا وكذا، فأتاه ذلك النبي الملك فأخبره، فدعا الله الملكُ وهو على سريره حتى سقط من السرير، وقال: يا رب أجّلني حتى يشبَّ طفلي وأقضي أمري، فأوحى الله عزّ وجلّ إلى ذلك النبي أن ائت فلان الملك فأعلمه أني قد أنسأت أجله وزدت في عمره خمس عشرة سنة، فقال ذلك النبي: يا رب إنك لتعلم أني لم أكذب قط، فأوحى الله عزّ وجلّ إليه: إنما أنت عبد مأمور فأبلغه ذلك، والله ﴿لا يُسْئَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ ثم التفت إلى سليمان فقال له: أحسبك ضاهيت اليهود في هذا الباب، قال: أعوذ بالله من ذلك، وما قالت اليهود؟ قال: ﴿قالَتِ الْيَهُودُ يَدُ اللَّهِ مَغْلُولَةٌ﴾، يعنون أن الله قد فرغ من الأمر فليس

يحدث شيئاً، فقال الله عزّ وجلّ ﴿غُلَّتْ أَيْدِيهِمْ وَلُعِنُوا بِمَا قَالُوا﴾، ولقد سمعت قوماً سألوا أبي موسى بن جعفر عليه السلام عن البداء فقال وما ينكر الناس من البداء وأن يقف الله قوما يرجئهم لأمره؟ قال سليمان، أ لا تخبرني عن ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ في أي شيء أنزلت؟ قال، يا سليمان ليلة القدر يقدر الله عزّ وجلّ فيها ما يكون من السنة إلى السنة من حياة أو موت أو خير أو شر أو رزق، فما قدره في تلك الليلة فهو من المحتوم، قال سليمان، الآن قد فهمت جعلت فداك فزدني، قال، يا سليمان: إن من الأمور أموراً موقوفة عند الله تبارك وتعالى يقدم منها ما يشاء ويؤخر ما يشاء، يا سليمان إن علياً عليه السلام كان يقول، العلم علمان فعلم علمه الله ملائكته ورسله، فما علمه ملائكته ورسله فإنه يكون ولا يكذب نفسه ولا ملائكته ولا رسله، وعلم عنده مخزون لم يطلع عليه أحداً من خلقه، يقدم منه ما يشاء ويؤخر ما يشاء ويمحو ويثبت ما يشاء، قال سليمان للمأمون، يا أمير المؤمنين لا أنكر بعد يومي هذا البداء ولا أكذب به إن شاء الله.

ـ عن الإمام الباقر عليه السلام قال،

«وأما قوله عالم الغيب فإن الله تبارك وتعالى عالم بما غاب عن خلقه بما يقدر من شيء ويقضيه في علمه، فذلك علم موقوف عنده، إليه فيه

المشيئة فيقتضيه إذا أراد ويبدو له فيه فلا يمضيه، فأما العلم الذي يقدره الله ويقضيه ويمضيه، فهو العلم الذي انتهى إلى رسول الله صلى الله عليه وآله ثم إلينا[١].

- عن الإمام الصادق عليه السلام، قال: ادع ولا تقل قد فرغ من الأمر، فإن الدعاء هو العبادة، إن الله عزّ وجلّ يقول: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، وقال ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[٢].

- وعنه عليه السلام: «إن الدعاء يرد القضاء».

- وعن الإمام الكاظم عليه السلام عن عمر بن يزيد سمعه يقول: إن الدعاء يرد ما قُدِّرَ وما لم يُقَدَّرَ. قال: قلت: جعلت فداك هذا ما قدر قد عرفناه، أفرأيت ما لم يقدر؟ قال: حتى لا يُقَدَّر.

- وعن الإمام الصادق عليه السلام: «إن الدعاء يرد القضاء المبرم بعدما أبرم إبراماً»[٣].

- وعنه قال: «إن المعروف يمنع مصارع السوء، وإن الصدقة تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد من العمر وتنفي الفقر»[٤].

---

(١) البحار ٢٨٨/٩٣.

(٢) البحار / ٩٣ / ٢٩٧.

(٣) المصدر السابق ٢٩٩.

(٤) المصدر ٨٨/٧٤.

مكانة أهل البيت عليهم السلام عند الله

لقد فصّل أهل البيت عليهم السلام في الحديث عن أنفسهم وعن مكانتهم السامية عند الله تعالى، مما جعلهم يتميزون ببعض الأمور عن غيرهم. ولأن الشيعة يأخذون معالم دينهم ومعتقدهم عن أهل البيت عليهم السلام فإنهم تبعاً لذلك آمنوا بما قاله الأئمة، فما فتئت طائفة ممن يتقمصون لباس الدين تكيل إليهم التهم وتصفهم بالمشركين والغلاة...إلى آخر ما هنالك من التهم، وإني أدعو الجميع للنظر إلى بعض مما يؤمن به الشيعة ويعتقدونه بعين الإنصاف، حتى نحكم هل الشيعة يغالون في أئمتهم؟.

ولكن بدءاً وكالعادة دعنا نُذكر ببعض الرؤى والبصائر القرآنية من خلال التدبر في الآيات التالية حتى تساعدنا في اتخاذ الموقف الصحيح:

١. قوله تعالى: ﴿بَلَىَ إِن تَصْبِرُواْ وَتَتَّقُواْ وَيَأْتُوكُمْ مِّن فَوْرِهِمْ هَٰذَا يُمْدِدْكُمْ رَبُّكُمْ بِخَمْسَةِ آلاَفٍ مِّنَ الْمَلآئِكَةِ مُسَوِّمِينَ﴾ عمران/ ١٢٥.

٢. وقوله ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلآئِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ﴾ النساء/ ٩٧.

٣. ﴿قَالَ فَمَا خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ (٣١) قَالُوٓاْ إِنَّآ أُرْسِلْنَآ إِلَىٰ قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ حِجَارَةً مِّن طِينٍ﴾ الذاريات/ ٣١ ـ ٣٣.

٤. ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لاَ نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ

يَكْتُبُونَ﴾ الزخرف/ ٨٠.

٥. ﴿قُلْ يَتَوَفَّاكُم مَّلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَى رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ السجدة/ ١١.

٦. ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُواْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لاَ تَعْلَمُونَ (٣٠) وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلاَئِكَةِ فَقَالَ أَنبِئُونِي بِأَسْمَاءِ هَؤُلاءِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ (٣١) قَالُواْ سُبْحَانَكَ لاَ عِلْمَ لَنَا إِلاَّ مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٣٢) قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ فَلَمَّا أَنبَأَهُمْ بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ (٣٣) وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلاَئِكَةِ اسْجُدُواْ لآدَمَ فَسَجَدُواْ إِلاَّ إِبْلِيسَ أَبَى وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾ البقرة/ ٣٠ ـ ٣٤.

٧. ﴿فَوَجَدَا عَبْداً مِّنْ عِبَادِنَا آتَيْنَاهُ رَحْمَةً مِنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَاهُ مِن لَّدُنَّا عِلْماً (٦٥) قَالَ لَهُ مُوسَى هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَى أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْداً (٦٦) قَالَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٦٧) وَكَيْفَ تَصْبِرُ عَلَى مَا لَمْ تُحِطْ بِهِ خُبْراً (٦٨) قَالَ سَتَجِدُنِي إِن شَاءَ اللَّهُ صَابِراً وَلاَ أَعْصِي لَكَ أمْراً (٦٩) قَالَ فَإِنِ اتَّبَعْتَنِي فَلاَ تَسْأَلْنِي عَن شَيْءٍ حَتَّى أُحْدِثَ لَكَ مِنْهُ ذِكْراً (٧٠) فَانطَلَقَا حَتَّى إِذَا رَكِبَا فِي السَّفِينَةِ خَرَقَهَا قَالَ أَخَرَقْتَهَا لِتُغْرِقَ أَهْلَهَا لَقَدْ جِئْتَ شَيْئاً إِمْراً

(٧١) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٢) قَالَ لاَ تُؤَاخِذْنِي بِمَا نَسِيتُ وَلاَ تُرْهِقْنِي مِنْ أَمْرِي عُسْراً (٧٣) فَانْطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَا لَقِيَا غُلاَماً فَقَتَلَهُ قَالَ أَقَتَلْتَ نَفْساً زَكِيَّةً بِغَيْرِ نَفْسٍ لَّقَدْ جِئْتَ شَيْئاً نُّكْراً (٧٤) قَالَ أَلَمْ أَقُلْ لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْراً (٧٥) قَالَ إِن سَأَلْتُكَ عَن شَيْءٍ بَعْدَهَا فَلاَ تُصَاحِبْنِي قَدْ بَلَغْتَ مِن لَّدُنِّي عُذْراً (٧٦) فَانطَلَقَا حَتَّىٰ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ اسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْاْ أَن يُضَيِّفُوهُمَا فَوَجَدَا فِيهَا جِدَاراً يُرِيدُ أَن يَنقَضَّ فَأَقَامَهُ قَالَ لَوْ شِئْتَ لاَتَّخَذْتَ عَلَيْهِ أَجْراً (٧٧) قَالَ هَٰذَا فِرَاقُ بَيْنِي وَبَيْنِكَ سَأُنَبِّئُكَ بِتَأْوِيلِ مَا لَمْ تَسْتَطِع عَّلَيْهِ صَبْراً (٧٨) أَمَّا السَّفِينَةُ فَكَانَتْ لِمَسَاكِينَ يَعْمَلُونَ فِي الْبَحْرِ فَأَرَدتُّ أَنْ أَعِيبَهَا وَكَانَ وَرَآءَهُم مَّلِكٌ يَأْخُذُ كُلَّ سَفِينَةٍ غَصْباً (٧٩) وَأَمَّا الْغُلاَمُ فَكَانَ أَبَوَاهُ مُؤْمِنَيْنِ فَخَشِينَآ أَن يُرْهِقَهُمَا طُغْيَاناً وَكُفْراً (٨٠) فَأَرَدْنَآ أَن يُبْدِلَهُمَا رَبُّهُمَا خَيْراً مِّنْهُ زَكَاةً وَأَقْرَبَ رُحْماً (٨١) وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلاَمَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً فَأَرَادَ رَبُّكَ أَن يَبْلُغَآ أَشُدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنزَهُمَا رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي ذَٰلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِع عَّلَيْهِ صَبْراً﴾ الكهف/ ٦٥ ـ ٨٢.

٨. ﴿قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرّاً عِندَهُ قَالَ هَٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ النمل/ ٤٠.

إن لهذا الكون جانبين، جانب الغيب وجانب الشهود.. الأخير هو ما نشهده بحواسنا المختلفة ونحيط به علماً (أو ببعضه) من حقائق وأشياء،

أما الأول فهو غائب عنا بشكل أو بآخر. (فكلمة الغيب من الغياب) والغيب أيضاً في جانب منه يكون نسبياً.. والمثال على ذلك أن عالم البرزخ غيب للأحياء بينما هو ليس كذلك بالنسبة لمن انتقل إليه.. والملائكة وشؤونها ومنها جبرائيل (أمين الوحي) هي غيب بالنسبة إلينا ولكنها ليست كذلك بالنسبة للنبي ﷺ ... وهكذا هناك جانب من الغيب يطلع عليه البعض دون الأغلبية... وكلا الجانبين (الغيب والشهود) نعلمهما بتعليم الله ﴿وَاللّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لاَ تَعْلَمُونَ شَيْئاً﴾.. و﴿عَلَّمَ الإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ لأنه تعالى هو ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾.

أما الشهود فهو الحد الأدنى الذي جعله الله تعالى لمسيرة هذه الحياة والتعاطي معها.. وأما بخصوص الغيب فقد جعل الله تعالى الإيمان والتسليم بأمره امتحاناً للبشر لمعرفة درجات الإيمان عندهم، لذلك يقول تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ (٢) الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلاةَ﴾، وهو الذي ﴿عِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لاَ يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ﴾.

فهو المالك الأوحد لهذا الغيب ولا يحيط به إلا هو تبارك وتعالى.. لكنه شاء أن يطلع بعض الغيب لخاصة أوليائه من أنبياء ورسل، ونجد تأكيداً لهذه الحقيقة في كثير من آيات الذكر الحكيم.

يقول تعالى، ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ﴾.

ويقول ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلاَ يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَداً إِلاَّ مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ﴾.

وكل ما يرتبط بأسماء الله وأفعاله وتصريفه لشؤون الكون هو من جملة الغيب الذي لا يعلمه إلا هو.. ولكنه تعالى أظهر على بعض غيبه من ارتضى من الناس وعلى رأسهم رسولنا الأكرم صلى الله عليه وآله، والقدر المتيقن ما نقرؤه في القرآن الكريم، فبعضه من أنباء الغيب أوحى إليه صلى الله عليه وآله، والرسول بُعث إلينا ليتلو علينا الآيات ويعلمنا الكتاب والحكمة.. فنعلم بذلك البعض من الغيب عبر نافذة علم رسول الله صلى الله عليه وآله.

وكما أن القرآن الكريم يعلمنا أن الله تعالى هو خالق هذا الكون ومدبر أموره، وأنه هو المحيي والمميت، وهو الذي يرزق ويطعم، بيده الملك وهو على كل شيء قدير... كذلك يعلمنا أنه وكّل بعض الملائكة بالقيام ببعض الشؤون في هذا الكون.. ففي الآية الأولى من الآيات التي بدأنا بها الحديث نرى أن الله أرسل ملائكة مسومة لنصرة المؤمنين مع التأكيد بأن النصر هو نصر الله.. كما أنه يرسل الملائكة كما هو في قصة آل لوط ويذهبون إلى إبراهيم عليه السلام قبل تنفيذ مهمتهم، مع أن الله تعالى قادر على

إنزال العذاب بدون الملائكة لأن أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له كن فيكون.

وجعل علينا ملكين كاتبين رغم أنه سبحانه وتعالى لا تعزب عنه مثقال ذرة في السماء ولا في الأرض، وهو بكل شيء عليم.. إنها أدوار تعبر عن الإرادة الإلهية وبإذنه ورضاه، وبما أنها كذلك اقتضت أن يكون القائمون بها معصومين، وذلك يؤكده المولى بقوله ﴿لَاّ يَعْصُونَ اللَّهَ مَآ أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ التحريم/ ٦.

والأحاديث التي وصلت إلينا تؤيد ما ذكرناه مع اليقين أن كل ذلك داخل سلطانه تعالى وقيموميته الدائمة والمطلقة... إلا أنه جعل سنناً وقوانين ـ بإذنه ـ قائمة به سبحانه وتعالى.. لانحيط بها علماً وهي من الغيب الذي علمنا بعضه بما أوحى لنبيه.

والعلم بهذه السنن والقوانين أو ببعضها يجعل من يعلمها يتحرك ضمن دائرتها بوضوح ودون خطأ، ويصبح الغيب لديه شهوداً.. ولنضرب مثلاً قريباً منا...

لقد جعل الله تعالى للنار خاصية الإحراق، فهي تحرق بإذن الله ولو شاء الله ما أحرقت.. لأنها بأمره تعالى ووفق قوانينه تسير (ولقد أمرها في قصة إبراهيم عليه السلام ألا تحرق فكانت برداً وسلاماً)، ونحن علمنا بخاصية الإحراق

في النار فنتجنبها دوماً وأبداً، ونحرق بها ما نريد إحراقه، فهٰذا القانون (إحراق النار) نعلمه فهو شهود عندنا، ونتحرك ضمن هٰذا القانون بكل ثقة ونستفيد منه لخدمة مصالحنا بإرادتنا... هٰذا القانون الكوني يكمله لنا القانون التشريعي (أحكام الشريعة) والتي بالتزامنا بها نستفيد من هذه السنة في إعمار الأرض وتطبيق الحق كما يريد المولى عزّ وجلّ.. وبالتالي يعصمنا هٰذا الالتزام من العبث والإفساد في الأرض... وعلى ذٰلك أكثر القوانين التي اكتشفها الإنسان.

وفي دائرة الغيب هناك من المخلوقات (وكل ما سوى الله مخلوق) ممن اجتباهم الله تعالى واصطفاهم من يعلم ببعض تفاصيل وقوانين هٰذا الغيب أعطاه الله تعالى من لدنه علماً... وأول من أعطي الدائرة الأوسع من هٰذا العلم خليفته الذي ارتضاه من البشر كما فصلنا في الآيات من سورة البقرة، والتي تتحدث عن قصة خلق آدم عليه السلام ... وقلنا أن هٰذا الخليفة هو المعبر عن إرادة الله تكويناً وتشريعاً...

ولتزداد الصورة وضوحاً دعنا نتدبر في الآيات رقم ٧ والتي تتحدث عن ذلك العبد الذي آتاه الله من لدنه علماً ورحمة، وفيها تتجلى الحقائق التالية:

✦ إن هنالك عباداً موجودين في هٰـذا الكـون غيـر منظـورين (غـائبين) أعطاهم الله تعالى رحمة وعلماً، أما الرحمة فقـد فسـرها الـبعض بـالنبوة، وأكثر العلماء قالوا بالولاية، هذه الولاية مقرونـة بـالعلم الـذي يعلمـه إيـاه الباري جل وعلا.. وهو من علم الغيب الذي غاب حتـى عـن موسـى عليه السلام في هذه القصة...

✦ أراد المولى عزّ وجـلّ أن يبـين الـدور التكـويني لهٰـذا العبـد ضـمن الأهداف والسنن التي تحكم هٰـذا الكـون، بمعنـى أن يتصـرف هٰـذا الـولي معبراً عن إرادة الله تعالى، وذٰلك نقرؤه عندما لم يستطع موسى عليه السلام صـبراً على أفعال ذٰلك العبد، وبدأ الأخير يبين الحكمة من ذٰلك، ثـم يـردف كـل بيان بإدخال إرادة الله في البين ﴿فأردنا.. ﴾، ﴿فأراد ربـك... ﴾، فمـا قـام بـه ذٰلك العبد (الخضـر كمـا قـال بـذٰلك المفسـرون) هـو فـي الواقـع إرادة الله تعالى.. وما كان هٰذا الولي إلا مُعبّراً عنها ومجرياً لها على أرض الواقع...

✦ بغض النظر عن أننا نقرأ هذه القصـة مـن القـرآن الكـريم، فلننظـر إليها من جانب آخر وكأنها في عصرنا ،كما هو الحال عند موسى عليه السلام كنا سنستنكر ما قام به الخضر عليه السلام فهو خرق السـفينة، وقتـل طفـلاً لـم يبلـغ الحلم وبنى جـداراً عنـد قـوم رفضـوا أن يطعمـوهم دون أن يأخـذ أجـراً...

وتصبح عندنا الحكمة من وراء ذلك غيباً، تماماً كما يستنكر الناس الآن الابتلاء في الأطفال لجهلهم بالحكمة من ذلك.

◆ الذين أصطفاهم الله وأعطاهم العلم والولاية لا ينحصر دورهم فقط في تعليم الناس وهدايتهم، بل لهم أحوال وشؤون أخرى في هذا الكون..

◆ ليس بالضرورة أن نحيط بهذه الشؤون والحكمة منها خبراً، فهي بينهم وبين الله تعالى، والله لا يُسأل عما يفعل ـ فأولئك الذين عاشوا في فترة تلك القصة عاشوا نتائجها وغابت عنهم التفاصيل التي كشفها القرآن للنبي صلى الله عليه وآله ولأمته لعلهم يتدبرون.

◆ هذا الولي عصمته لازمة وضرورية لدوره المهم الذي يقوم به في إنفاذ مشيئته تعالى (كما هو الحال في (المدبرات أمراً «الملائكة») وهذا يبدو واضحاً ومن نافلة القول.

أما الآيات رقم (٨) والتي تتحدث عن آصف بن برخيا كما ذكر المفسرون، وقالوا أنه «كان كاتب نبي الله سليمان وصدّيقاً»، هذا الرجل عنده علم من الكتاب، وقال المفسرون أن هذا العلم اسم الله الأعظم، وقيل علماً من الغيوب، ولا فرق لأن الاسم الأعظم بذاته غيب لا يناله إلا من اجتباه الله تعالى... شاهدنا في الآية أن آصف لم يكن نبياً أو رسولاً إنما من

خواص النبي سليمان، ولكنه قام بعمل يستغربه من يطل عليه بلا علم أو هدى... لقد أتى بعرش بلقيس من حيث مملكتها إلى مكان سليمان قبل أن يرتد إليه طرفه «في رمشة عين» على قولنا، في جزء من الثانية، فهي معجزة وكرامة من الله لهٰذا الشخص، وقد جاء في تفسير ابن كثير:

✦ قال محمد بن إسٰحق: شخصت بلقيس إلى سليمان في اثني عشر ألف قَيْلٍ من ملوك اليمن مع كل قَيْلٍ ألوف كثيرة، فجعل سليمان يبعث الجن يأتونه بمسيرها ومنتهاها كل يوم وليلة، حتى إذا دنت جمع من عنده من الجن والإنس ممن تحت يده فقال: ﴿يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبْلَ أن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، وقال قتادة: لما بلغ سليمان أنها جائية وكان قد ذكر له عرشها فأعجبه، وكان من ذهب وقوائمه لؤلؤ وجوهر، وكان مستراً بالديباج والحرير وكانت عليه تسعة مغاليق، فكره أن يأخذه بعد إسلامهم، وقد علم نبي الله أنهم متى أسلموا تحرم أموالهم ودماؤهم، فقال: ﴿يَأَيُّهَا الْمَلأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِي بِعَرْشِهَا قَبل إن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾، وهكذا قال عطاء الخراساني والسدي وزهير بن محمد ﴿قَبل أن يَأْتُونِي مُسْلِمِينَ﴾ فتحرم عليَّ أموالهم بإسلامهم، ﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِّنَ الْجِنِّ﴾ قال مجاهد أي مارد من الجن، قال شعيب الجبائي: وكان اسمه كوزن، وكذا قال محمد بن إسٰحق

عن يزيد بن رومان، وكذا قال أيضاً وهب بن منبه، قال أبو صالح، وكان كأنه جبل ﴿أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبلَ أن تَقُومَ مِن مَقَامِكَ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنه، يعني قبل أن تقوم من مجلسك، وقال مجاهد، مقعدك، وقال السدي وغيره، كان يجلس للناس للقضاء والحكومات وللطعام من أول النهار إلى أن تزول الشمس، ﴿وَإِنّي عَلَيْهِ لَقَوِيّ أَمِينٌ﴾ قال ابن عباس، أي قوي على حمله أمين على ما فيه من الجوهر، فقال سليمان عليه السلام، أريد أعجل من ذلك، ومن هنا يظهر أن سليمان أراد بإحضار هذا السرير إظهار عظمة ما وهب الله له من الملك، وما سخر له من الجنود الذي لم يعطه أحد قبله ولا يكون لأحد من بعد، وليتخذ ذلك حجة على نبوته عند بلقيس وقومها، لأن هذا خارق عظيم أن يأتي بعرشها كما هو من بلادها قبل إن يقدموا عليه، هذا وقد حجبته بالاغلاق والأقفال والحفظة، فلما قال سليمان أريد أعجل من ذلك ﴿قَالَ الّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مّنَ الْكِتَابِ﴾ قال ابن عباس، وهو آصف كاتب سليمان، وكذا روى محمد بن إسحق عن يزيد بن رومان أنه آصف بن برخياء وكان صدّيقاً يعلم الاسم الأعظم ﴿أَنَاْ آتِيكَ بِهِ قَبلَ أن يَرْتَدّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ﴾ أي ارفع بصرك وانظر مد بصرك مما تقدر عليه فإنك لا يكل بصرك إلا وهو حاضر عندك، وقال وهب بن منبه امدد

بصرك فلا يبلغ مداه حتى آتيك به، فذكروا أنه أمره أن ينظر نحو اليمن التي فيها هٰذا العرش المطلوب قال فمثل بين يديه، قال مجاهد وسعيد بن جبير ومحمد بن إسٰحق وزهير بن محمد وغيرهم: لما دعا الله تعالى وسأله أن يأتيه بعرش بلقيس ـ وكان في اليمن وسليمان عليه السلام ببيت المقدس ـ غاب السرير وغاص في الأرض ثم نبع من بين يدي سليمان، وقال عبد الرحٰمن بن زيد بن أسلم: لم يشعر سليمان إلا وعرشها يحمل بين يديه، قال: وكان هٰذا الذي جاء به من عباد البحر، فلما عاين سليمان وملؤه ذٰلك ورآه مستقراً عنده ﴿قَالَ هٰذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾.

إننا نستشف من الآيات:

✦ التأكيد على ما ذهبنا إليه من أن هبة الله لبعض البشر بالقدرة في التصرف في هٰذا الكون وفق نواميس لا نعلمها لا ينحصر فقط في الأنبياء والرسل.

✦ إن الذي عند آصف بن برخيا كان علماً من الكتاب، فما بال الذي عنده علم الكتاب وسيأتيك خبره...

خلصنا مما تقدم إلى أن مناط خلافة الله في الأرض والتعبير عن إرادته هو الاجتباء الإلٰهي والاختيار بحكمة «قد نجهلها»، ومن ثم إيتاؤه العلم

بخلاف طريقة بقية البشر، ومن هٰذا العلم «العلم ببعض أسرار الغيب» مشفوعاً بالعصمة التي تضمن عدم العبث بهذه الامتيازات..

ولهٰذا «الخليفة» دور تكويني قد لا يتسنى لنا فهمه أو حتى العلم به، وبالتالي قد يكون ظاهراً أو غائباً مستوراً، حاكماً أو محكوماً.. مورد ابتلاء للبشر أو لفئة خاصة كما هو الحال مع الخضر، وقد يكون نبياً أو رسولاً أو ولياً، غير ذلك.

أما الأنبياء والرسل فأمرهم بيّن، فمنهم من عُلّم مما لا تعلمه الملائكة «آدم»، ومنهم من عُلّم منطق الطير والدواب، ومنهم من سارت الجبال في خدمته، وآخر أعطي القدرة على إحياء الموتى وكلهم بإذن الله..

وأما غير ذلك فقد ذكرنا لك منه خبراً.. وإليك بيت القصيد.. الذي كانت تلك المقدمة بسببه، هل أهل البيت عليهم السلام يملكون شيئاً من ذلك؟

بدءاً لا بد من الإشارة إلى أن النبي محمداً صلى الله عليه وآله هو الأكمل والأفضل في كل التاريخ علماً وقرباً من الله تعالى، ولا شك في أن كل المعاني التي ذكّرنا بها سابقاً تتجسد في شخصه الكريم، فهو خليفة الله في أرضه وأمين وحيه وخاتم رسله وحبيبه وصفيه، حباه من العلم والكرامة ما لم يحظ به نبي مرسل ولا ملك مقرب، فأطلعه على غيبه وأنزل عليه كتاباً فيه تبيان

كل شيء، وجعله المهيمن.. فكان بذلك ﷺ النموذج الأمثل للتعبير عن إرادة الله تعالى، لأنه النور الذي تجلت فيه كل المعاني فضلاً من الله وعطاء غير مجذوذ...

ولما كانت سنة الله تعالى تقتضي استمرار هذه الخلافة الإلهية في أئمة يتولون الأمر بعد الرسول ﷺ، كان الاختيار من نصيب عترته وأهل بيته عليهم السلام وقد فصلنا في ذلك ـ فحملوا الأمانة... وأورثهم المولى عزّ وجلّ ما كان لنبيه (ما خلا الوحي) حتى قال عنهم النبي ﷺ «ورزقوا فهمي وعلمي» فكان علمهم من رسول الله ﷺ وليس كعلمنا نحن، بل علم ينسجم مع ما أوكل إليهم الأمر فيه.. حتى قال علي بن أبي طالب كما ذكرنا (علمني رسول الله ﷺ ألف باب من العلم يفتح لي من كل باب ألف باب) ترى أي نوع من العلم هو؟... لقد قالها علي في نفسه وهي مستمرة مع ذريته (آل محمد) ..

إذاً الولاية «الخلافة» كما قدمنا لها تتجلى في أهل البيت عليهم السلام بأبهى صورها.. فعصمتهم ثبتت بالمنقول ودلت عليها العقول..

وأما العلم فلا يخفى عليك بعد الذي ذكرنا رسوخهم فيه، حتى قال الباري عزّ وجلّ ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلاَّ اللَّهُ وَالرَّاسِخُونَ فِي الْعِلْمِ﴾ آل

عمران/ ٧، فالمصطفى وأهل بيته هم الراسخون في العلم، كما أنهم مع الأنبياء والأوصياء والأولياء «خلفاء الله في أرضه» هم أولوا العلم المذكورون في قوله ﴿شَهِدَ اللّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلاَئِكَةُ وَأُوْلُواْ الْعِلْمِ قَآئِمَاً بِالْقِسْطِ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ الآية ١٨/ آل عمران ،فشهادتهم كانت نتيجة علمهم بأنه لا إله إلا هو قائماً بالقسط، وهذه الشهادة كما تتجلى في أفئدتهم تسليماً وخشوعاً تتجلى في أفعالهم عصمة وطهارة.. لأنهم عطفوا على الملائكة في الآية المباركة الذين لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون، وهم يسبحون بحمده ويقدسون له.. كذلك هم الأولياء..

أما اصطفاء الله لأهل البيت فقد تحدثنا عن ذلك في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ وَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾، وقوله: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ اللّهُ وَرَسُولُهُ وَالَّذِينَ آمَنُواْ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلاَةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَهُمْ رَاكِعُونَ﴾.

هؤلاء هم أهل البيت عليهم السلام .. ألا يؤهلهم كل ذلك لأن يقوموا بأدوار كتلك التي قام بها الخضر؟ أولا تكون لهم كرامة معجزة كتلك التي كانت لآصف بن برخيا؟؟ ألا يستحقون أن تكون لهم تلك العلاقة الخاصة

والرابط المقدس مع السماء؟.. بلى وأكثر، لأنهم ورثوا عن الأكمل والأفضل من كل من ارتبط بالسماء، وهو زعيمهم وإمامهم النبي محمد ﷺ ولنا في سورة القدر هدى يزيدنا يقيناً فاقرأ ﴿ إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ(١) وَمَآ أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ(٢) لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِّنْ أَلْفِ شَهْرٍ(٣) تَنَزَّلُ الْمَلاَئِكَةُ وَالرُّوحُ فِيهَا بِإِذْنِ رَبِّهِم مِّن كُلِّ أَمْرٍ(٤) سَلاَمٌ هِيَ حَتَّى مَطْلَعِ الْفَجْرِ(٥)﴾

لقد أُنزل القرآن مرة واحدة واكتمل وحيه للنبي ﷺ لكن الملائكة والروح تتنزل في كل ليلة قدر بإذن ربهم من كل أمر، إنها ليلة يفرق فيها كل أمر حكيم في كل عام من شهر رمضان المبارك، وسميت ليلة القدر لتقدير الأمور فيها.. فالملائكة في زمن النبي تحط رحالها عند أعتاب بيته.. فماذا بعد رحيله.. إن ليلة القدر قدر في كل سنة تمر على هذه الدنيا في شهر رمضان ،والملائكة كما تقول السورة تتنزل فيها من كل أمر فمن لها غير الأوصياء والأئمة المعصومين من عترته ﷺ؟ وإلى يومنا هذا، حيث صاحب الأمر في زماننا الإمام الثاني عشر المهدي بن الحسن العسكري وسيأتيك ذكره بعد حين... إنه سياق متصل عن الولاية وآيات لأولي الألباب،والشيعة أقرب ما تكون في عقائدها من القرآن الكريم، ولا عجب

فهم يأخذون من أهل بيت الوحي دينهم... ولا أظنني في حاجة إلى التفصيل أكثر من ذلك في هذا البحث، وفيما ذكرناه حجة لمن كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد.

روايات عن أهل البيت عليهم السلام

ـ عن عبد الله بن عباس قال، قام رسول الله صلى الله عليه وآله فينا خطيباً فقال في آخر خطبته، جمع الله عزّ وجلّ لنا عشر خصال لم يجمعها لأحد قبلنا ولا تكون في أحد غيرنا، فينا الحكم والحلم والعلم والنبوة والسماحة والشجاعة والقصد والصدق والطهر والعفاف، ونحن كلمة التقوى وسبيل الهدى والمثل الأعلى والحجة العظمى والعروة الوثقى والحبل المتين، ونحن الذين أمر الله لنا بالمودة، ﴿فَما ذا بَعْدَ الْحَقِّ إِلا الضَّلالُ فَأَنّى تُصْرَفُونَ﴾!!.

ـ عن أحمد بن محمد عن محمد بن سنان عن أبي الجارود عن الأصبغ بن نباتة قال، سمعت أمير المؤمنين عليه السلام يقول، إن لله علمين علماً استأثر به في غيبه فلم يطلع عليه نبياً من أنبيائه ولا ملكاً من ملائكته، وذلك قول الله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ ما فِي الأَرْحامِ وَما تَدْرِي نَفْسٌ ما ذا تَكْسِبُ غَداً وَما تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ﴾، وله علم قد أطلع عليه ملائكته، فما أطلع عليه ملائكته فقد أطلع عليه محمدا وآله

وما أطلع عليه محمداً وآله عليهم السلام فقد أطلعني عليه يعلمه الكبير منا والصغير إلى أن تقوم الساعة.

- عَنْ سَدِيرٍ قَالَ كُنْتُ أَنَا وَأَبو بَصِيرٍ وَيَحْيَى الْبَزَّازُ وَدَاوُدُ بْنُ كَثِيرٍ فِي مَجْلِسِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام إِذْ خَرَجَ إِلَيْنَا وَهُوَ مُغْضَبٌ، فَلَمَّا أَخَذَ مَجْلِسَهُ قَالَ: يَا عَجَباً لأَقْوَامٍ يَزْعُمُونَ أَنَّا نَعْلَمُ الْغَيْبَ، مَا يَعْلَمُ الْغَيْبَ إِلا اللَّهُ عزّ وجلّ، لَقَدْ هَمَمْتُ بِضَرْبِ جَارِيَتِي فُلانَةَ فَهَرَبَتْ مِنِّي فَمَا عَلِمْتُ فِي أَيِّ بُيُوتِ الدَّارِ هِيَ، قَالَ سَدِيرٌ: فَلَمَّا أَنْ قَامَ مِنْ مَجْلِسِه وَصَارَ فِي مَنْزِلِه دَخَلْتُ أَنَا وَأَبو بَصِيرٍ وَمُيَسِّرٌ وَقُلْنَا لَهُ: جُعِلْنَا فِدَاكَ سَمِعْنَاكَ وَأَنْتَ تَقُولُ كَذَا وَكَذَا فِي أَمْرِ جَارِيَتِكَ، وَنَحْنُ نَعْلَمُ أَنَّكَ تَعْلَمُ عِلْماً كَثِيراً وَلا نَنْسُبُكَ إِلَى عِلْمِ الْغَيْبِ، قَالَ فَقَالَ: يَا سَدِيرُ أَ لَمْ تَقْرَأِ الْقُرْآنَ؟ قُلْتُ بَلَى، قَالَ فَهَلْ وَجَدْتَ فِيمَا قَرَأْتَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عزّ وجلّ (قَالَ الَّذِي عِنْدَهُ عِلْمٌ مِنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبل أن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ) قَالَ: قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ قَدْ قَرَأْتُهُ، قَالَ فَهَلْ عَرَفْتَ الرَّجُلَ وَهَلْ عَلِمْتَ مَا كَانَ عِنْدَهُ مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ؟ قَالَ قُلْتُ أَخْبِرْنِي بِهِ، قَالَ: قَدْرُ قَطْرَةٍ مِنَ الْمَاءِ فِي الْبَحْرِ الأَخْضَرِ، فَمَا يَكُونُ ذَلِك مِنْ عِلْمِ الْكِتَابِ؟ قَالَ قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ مَا أَقَلَّ هَذَا، فَقَالَ يَا سَدِيرُ مَا أكثر هَذَا أَنْ يَنسبَهُ اللَّهُ عزّ وجلّ إِلَى الْعِلْمِ الَّذِي أُخْبِرُكَ بِهِ، يَا سَدِيرُ فَهَلْ وَجَدْتَ

فِيمَا قَرَأْتَ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ عزّ وجلّ أَيْضاً (قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتابِ) قَالَ قُلْتُ قَدْ قَرَأْتُهُ جُعِلْتُ فِدَاكَ، قَالَ: أَفَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ كُلُّهُ أَفْهَمُ أَمْ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ بَعْضُهُ؟ قُلْتُ لا بَلْ مَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ كُلُّهُ، قَالَ فَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى صَدْرِهِ وَقَالَ: عِلْمُ الْكِتَابِ وَاللَّهِ كُلُّهُ عِنْدَنَا، عِلْمُ الْكِتَابِ وَاللَّهِ كُلُّهُ عِنْدَنَا.

ـ عَنْ جَابِرٍ عَنْ أَبِي جَعْفَرٍ عليه السلام قَالَ: إِنَّ اسم اللَّهِ الأعظم عَلَى ثَلاثَةٍ وَسَبْعِينَ حَرْفاً وَإِنَّمَا كَانَ عِنْدَ آصفَ مِنْهَا حَرْفٌ وَاحِدٌ فَتَكَلَّمَ بِهِ فَخُسِفَ بِالأرض مَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ سَرِيرِ بِلْقِيسَ حَتَّى تَنَاوَلَ السَّرِيرَ بِيَدِهِ ثُمَّ عَادَتِ الأرض كَمَا كَانَتْ أَسْرَعَ مِنْ طَرْفَةِ عَيْنٍ، وَنَحْنُ عِنْدَنَا مِنَ الاسْمِ الأعظم اثْنَانِ وَسَبْعُونَ حَرْفاً، وَحَرْفٌ وَاحِدٌ عِنْدَ اللَّهِ تعالى اسْتَأْثَرَ بِهِ فِي عِلْمِ الْغَيْبِ عِنْدَهُ وَلا حَوْلَ وَلا قُوَّةَ إِلا بِاللَّهِ الْعَلِيِّ الْعَظِيمِ.

ـ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ سَعِيدٍ وَمُحَمَّدِ بْنِ خَالِدٍ عَنْ زَكَرِيَّا بْنِ عِمْرَانَ الْقُمِّيِّ عَنْ هَارُونَ بْنِ الْجَهْمِ عَنْ رَجُلٍ مِنْ أَصْحَابِ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام لَمْ أَحْفَظْ اسْمَهُ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ عليهما السلام أُعْطِيَ حَرْفَيْنِ كَانَ يَعْمَلُ بِهِمَا، وَأُعْطِيَ مُوسَى أَرْبَعَةَ أَحْرُفٍ، وَأُعْطِيَ إبراهيم ثَمَانِيَةَ أَحْرُفٍ، وَأُعْطِيَ نُوحٌ

خَمْسَةَ عَشَرَ حَرْفاً، وَأُعْطِيَ آدَمُ خَمْسَةً وَعِشْرِينَ حَرْفاً، وَإِنَّ اللَّهَ تعالى جَمَعَ ذلك كُلَّهُ لِمُحَمَّدٍ صلى الله عليه وآله وَإِنَّ اسم اللَّهِ الأعظم ثَلاثَةٌ وَسَبْعُونَ حَرْفاً أُعْطِيَ مُحَمَّدٌ صلى الله عليه وآله اثْنَيْنِ وَسَبْعِينَ حَرْفاً وَحُجِبَ حَرْفٌ وَاحِدٌ عَنْهُ.

ـ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ عَلِيٍّ عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ عَنْ عَبْدِ الْعَزِيزِ الْعَبْدِيِّ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام فِي قَوْلِ اللَّهِ عزّ وجلّ ﴿بَلْ هُوَ آياتٌ بَيِّناتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ قَالَ: هُمُ الأئمة عليهم السلام.

ـ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ مُعَلَّى بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ عُمَرَ قَالَ سَأَلْتُ أَبَا الْحَسَنِ الرِّضَا عليه السلام عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عزّ وجلّ ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبادِنا﴾ الآيَةَ قَالَ فَقَالَ: وُلْدُ فَاطِمَةَ عليها السلام وَالسَّابِقُ بِالْخَيْرَاتِ الإِمَامُ.

عن أبي بصير عن الصادق جعفر بن محمد عليه السلام أنه قال: يا أبا بصير نحن شجرة العلم، ونحن أهل بيت النبي صلى الله عليه وآله وفي دارنا مهبط جبرئيل، ونحن خزان علم الله ونحن معادن وحي الله، من تبعنا نجا ومن تخلف عنا هلك حقاً على الله عزّ وجلّ.

المهدي المنتظر عليه السلام

الإمام الثاني عشر الحجة بن الحسن (عج)

ولاكتمال حلقات بحوثنا لا بد من الإشارة لعقيدتنا بالإمام المهدي «الإمام الثاني عشر» من أئمة الشيعة، وهو الحجة بن الحسن العسكري عليه السلام.. والذي تقول الشيعة بأنه ولد عام ٢٥٥ هـ، وهو حي غائب إلى يومنا هذا، وهو الإمام الأخير الذي يبسط قيم السماء في كل أرجاء الكون، فيملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت جوراً وظلماً...

والمهدوية كعقيدة تعتبر من المسلمات عند أغلب المسلمين إلا من شذ وكان من الجاهلين، وهي حقيقة ظاهرها الرحمة الإلهية، وباطنها علم عميق بسنن الله، وإيمان خالص بأسمائه الحسنى.. وتصديق بوعد الله القائل ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُواْ فِي الأرض وَنَجْعَلَهُمْ أئمة وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ الآية، وهو أمل البشرية كلها...

وروايات المهدي عن غير طريق الشيعة كثيرة ومتضافرة نورد منها.

ـ قال رسول الله صلى الله عليه وآله: «المهدي منا أهل البيت، المهدي من ولد فاطمة» جاء في سنن ابن ماجة.

ـ وقال صلى الله عليه وآله «لن تنقضي الأيام والليالي حتى يبعث الله رجلاً من أهل

بيتي يواطئ اسمه اسمي، يملأ الأرض عدلاً وقسطاً كما ملئت ظلماً وجوراً»[1].

وقال ﷺ «إنا أهل بيت اختار الله لنا الآخرة على الدنيا، وإن أهل بيتي سيلقون بعدي بلاءً شديداً، حتى يأتي قوم من قبل المشرق معهم رايات سود، فيسألون الخير فلا يُعطَونه فيقاتلون فينتصرون، فَيُعطَون ما سألوا فلا يقبلونه حتى يدفعونها إلى رجل من أهل بيتي فيملؤها قسطاً كما ملئت جوراً»[2].

وفي الجملة فإن العقيدة بظهور المهدي آخر الزمان يؤمن بها جلُّ المسلمين، بل وقد ألفَ علماء السنة حولها المصنفات وأثبتوا صحة الأحاديث التي بشرت به.. ومن هؤلاء ابن القيم الجوزية في كتابه المنار المنيف في الصحيح والضعيف، وابن حجر الهيثمي في كتابه الصواعق المحرقه الذي قال فيه: الآية الثانية عشرة قوله تعالى: «وإنه لعلم الساعة» قال مقاتل بن سليمان ومن تبعه من المفسرين أن هذه الآية نزلت في المهدي، وستأتي الأحاديث المصرحة بأنه من أهل البيت النبوي، وحينئذٍ

---

(١) مسند أبي داود ٤/١٠٤.

(٢) مسند ابن ماجه ٢/٩٠٨٢.

ففي الآية دلالة على البركة في نسل فاطمة وعلي عليهما السلام وإن الله ليخرج منهما كثيراً طيباً، وأن يجعل نسلهما مفاتيح الحكمة ومعادن الرحمة، وسر ذلك أن النبي صلى الله عليه وآله أعاذها وذريتها من الشيطان الرجيم، ودعا لعلي بمثل ذلك».

ومنهم أبو الفداء، ابن كثير في النهاية، وجلال الدين السيوطي في كتابه «الحاوي للفتاوي» وابن أبي الحديد المعتزلي في شرح النهج وغيرهم..

ولكن الذي يستنكرونه على الشيعة أنهم يؤمنون بكونه مولوداً من عام ٢٥٥م، وهو حي غائب إلى يومنا هذا وحتى يأذن الله له بالخروج فيملأها عدلاً وقسطاً...

وحقيقة لم أر حجة قوية تقف وراء استهجان البعض واستهزاء الآخر (من النواصب) بعقيدة المهدي الإمام الغائب سوى ضعف الإيمان وهشاشة العقيدة وركوب الجهل والهوى... مع عذرنا للقطاع الأوسع من أبناء هذه الأمة والتي بنيت عقلياتهم على قوالب مادية جامدة، وضعت فيها قيم الشريعة ومعانيها السامية، فارتسمت في أفئدتهم ظلال باهتة مقطعة الأوصال.. لا انسجام فيها بين التوحيد الذي فُطروا عليه وبين واقع حياتهم السياسي والاجتماعي، ولا تكامل فيها بين الإيمان بالغيب وتعاطيهم مع

الشهود، فينفرون عند أول شبهه ويسقطون في أقل فتنة..

أما القول بولادة المهدي وبقائه حياً إلى يومنا هذا، فقد ذهب كثير من جهابذة علماء السنة إليه... ولقد تتبع المستبصر الأردني الأستاذ مروان خليفات القائلين بذلك من السنة في كتابه «وركبت السفينة» فقال، (يقول مصطفى الرافعي، «ولد الإمام المهدي في سامراء عام ٢٥٥ هـ ـ وكان يوم الجمعة ـ وفي ليلة النصف من شعبان، وذلك أثر عهد المعتز العباسي المعروف بأنه كان شديد القسوة على الإمام العسكري، وحريصاً على القضاء عليه قبل أن ينجب آخر قادة الإسلام، وخاتم أوصياء نبي الإسلام المهدي المنتظر، ويشاء القدر أن يطاح بالمعتز العباسي ويبايع بالخلافة لمحمد المهتدى، وتتم ولادة الإمام القائد بشكل هادىء..»، إلى أن يقول، «وقبل أن أعرض لفكرة المهدي في ضوء الكتاب والسنة والعقل والحكمة، أود أن أشير إلى أن القائلين بظهور المهدي وأنه الآن على قيد الحياة ليسوا الشيعة الإمامية وحدهم، بل إن كثيراً من علماء السنة وافقوهم في اعتقادهم هذا»[1]، وقد تتبع علماء الشيعة أقوال علماء السنة الذين قالوا بولادة الإمام المهدي عليه السلام، وقام الأستاذ ثامر هاشم العميدي بجمع وترتيب أسماء هؤلاء العلماء بحسب القرون فكانوا (١٢٨) عالماً اخترنا

(١) نقلاً عن إسلامنا: ص١٨٧ ـ ١٨٨.

منهم)[١].

١. محمد بن هارون أبو بكر الروياني (ت/ ٣٠٧هـ(في كتابه المسند (مخطوط).

٢. أبو نعيم الأصبهاني (ت/ ٤٣٠هـ(في الأربعين حديثاً في المهدي.

٣. أحمد بن الحسين البيهقي (ت/ ٤٥٨هـ(في شعب الإيمان ط١ دار المعارف ـ الهند.

٤. الخوارزمي الحنفي (ت/ ٥٦٨هـ(في مقتل الإمام الحسين عليه السلام كما في الإمام المهدي في نهج البلاغة.

٥. محيي الدين بن العربي (ت٦٣٨) في الفتوحات المكية باب ٣٦٦ في المبحث الخامس والستين كما في اليواقيت والجواهر للشعراني.

٦. كمال الدين محمد بن طلحة الشافعي (ت/٦٥٢هـ(في مطالب السول.

٧. سبط بن الجوزي الحنبلي (ت/ ٦٥٤هـ(في تذكرة الخواص.

٨. محمد بن يوسف أبو عبد الله الكنجي الشافعي (المقتول سنة ٦٥٨) في كتابه كفاية الطالب.

٩. الجويني الحموئي الشافعي (ت/ ٧٣٢هـ(في فرائد السمطين ٢/

---

(١) وركبت السفينة مروان خليفات ص٦١٠ ـ ص٦١٤.

٣٣٧طبع بيروت.

١٠. نور الدين علي بن محمد الصباغ المالكي (ت٨٥٥هـ(في الفصول المهمة.

١١. جلال الدين السيوطي (ت/ ٩١١هـ(في رسالته، إحياء الميت بفضائل أهل البيت.

١٢. الشيخ حسن العراقي (ت بعد ٩٥٨) دفن قرب كوم الريش بمصر.

وغيرهم، ولم يكن ذلك إلا إخباتاً للحق الذي لا بديل له.. مما يؤكد صدق إيمان الشيعة وصدق دعواهم، التي لم تكن إلا تجلياً لتسليمهم للمولى عزّ وجلّ وطاعتهم للنبي الأكرم، الذي أكد كما سبق على أن الخلافة من بعده في الأئمة من أهل بيته تنحصر في اثني عشر لا زيادة ولا نقصان، إن عدد الخلفاء كعدد نقباء بني إسرائيل، إمام يتلوه إمام في سلسلة متصلة مقرونة بالقرآن إلى آخر الزمان، مشخصة أعيانهم معروفة اسماؤهم فكيف لا يؤمنون؟، إذ ليس هناك من ينطبق عليه هٰذا الوصف سمة وعدداً سوى أهل البيت..

بناء على ما أوردناه فيما مضى بخصوص حديث الثقلين وعددهم وفيه تتجلى حقيقتان:

أ. أنهم لن يفترقوا عن القرآن إلى يوم القيامة.

ب. أن عددهم محصور باثني عشر إماماً.

هاتان الحقيقتان تفرضان علينا التسليم بأنهم سلسلة متصلة لا يخلو منها زمان وإلا فسدت الأرض، كما في حديث: أهل بيتي أمان لأهل الأرض، ويؤكد هذا المعنى الحديث المعروف «من مات ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة الجاهلية» ففي كل زمان إمام مفروض الطاعة..

والإمام كما أشرنا سابقاً هو خليفة الله في أرضه ظاهراً كان أو غائباً، لتعدد مهام هذا الخليفة في الأرض.. مع كل هذه الحقائق ويقيننا بأن أحد عشر إماماً من أهل البيت عليهم السلام مضوا وبقي واحد لا ينتهي عمر هذه الأرض إلا بعد أن يملأها عدلا وقسطاً، ويحقق الحاكمية المطلقة بتطبيق الكتاب كله وسيادة الشريعة الإسلامية المهيمنة على غيرها من الرسالات، وهو الوحيد القادر على ذلك لأنه أُورث الكتاب واصطُفي لهذه المهمة العظيمة...لايبقى لنا إلا القول بما قالت الشيعة.

هذه المواصفات هي التي يحلم بها كل المسلمين، وهذا هو الأمل في النفوس والوعد الإلهي المنتظر، إنه المهدي.. فهل يمكن أن يكون إلا الثاني عشر من الخلفاء الذين بشر بهم النبي صلى الله عليه وآله .. والذين كانت مودتهم

أجر الرسالة. فعصمهم الله من الرجس وطهرهم تطهيراً؟ بلا شك ليس إلا هو عجل الله فرجه الشريف، فلزم القول بحياته إلى حين الإذن بالخروج والظهور، وبهذه العقيدة فقط تكتمل سلسلة عقيدتنا بالرسالة، وهٰذا هو قول الشيعة الذي لا نملك إلا التسليم له، والحجة في ذٰلك واضحة جلية فلماذا نرفضها؟، فقط لأنه عاش هذه المدة الطويلة؟ ولعمري إن هذه المعضلة تحل إذا حققنا في أنفسنا الأمرين التالين، الإيمان بالغيب، والتأمل في القرآن الكريم للاعتبار بالقصص والبصائر.

فالإيمان بالغيب كلٌ لا يتجزأ، وكلما ازداد إيمان المرء ازداد إيمانه بالغيب.. وأساس ذٰلك الإيمان بالله تعالى وبأسمائه الحسنى، فهو العالم القادر الحكيم الفعال لما يريد، لا يُسأل عما يفعل وهم يُسْألون، وإذا اغترف المؤمن من معين هٰذا الإيمان لا يجد في نفسه حرجاً، كما أنه لن يستكبر إن كان في مجريات الأمور شيء مما لا تهواه النفس ولا تستأنس به.. فالله قادر على كل شيء بلا استثناء، فلا يعجزه إطالة العمر تماماً كما لا يعجزه إحياء الموتى بعد أن أضحوا رميماً.. كما أنه حكيم حكمة تارة يُعلّمنا إياها وأخرى نجهلها.. وهكذا.

وتثبيتاً لإيماننا وزيادة في يقيننا تليت علينا أنباء من قد سبق في القرآن

الكريم، فحكيت القصة تلو الأخرى، فهناك نوح الذي عاش عمراً مديداً مدة التبليغ فيه ٩٥٠ سنة، وفيه خبر الخضر العبد الصالح الذي لاقى موسى، وأخرى فيها تاريخ عيسى الذي ولد ولم يمت بل رفع إلى السماء وهو حي إلى يومنا هذا، وينتظر ظهوره عليه السلام لينزل ويصلي خلفه، ولا نحيط تفصيلاً بالحكمة، لكننا نؤمن بأن الذي أولده من غير أب ورفعه إليه قادر حكيم وهو رب المهدي وربنا سبحانه وتعالى..

وفيما يلي بعض روايات عن أهل البيت عليهم السلام حول الإمام المهدي عليه السلام:

ـ عن مُحَمَّد بْن يَحْيَى عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجْرَانَ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْمُسَاوِرِ عَنِ الْمُفَضَّلِ بْنِ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِيَّاكُمْ وَالتَّنْوِيهَ أَمَا وَاللَّهِ لَيَغِيبَنَّ إِمَامُكُمْ سِنِيناً مِنْ دَهْرِكُمْ وَلَتُمَحَّصُنَّ حَتَّى يُقَالَ مَاتَ قُتِلَ هَلَكَ بِأَيِّ وَادٍ سَلَكَ وَلَتَدْمَعَنَّ عَلَيْهِ عُيُونُ الْمُؤْمِنِينَ وَلَتُكْفَؤُنَّ كَمَا تُكْفَأُ السُّفُنُ فِي أَمْوَاجِ الْبَحْرِ فَلا يَنْجُو إِلا مَنْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَهُ وَكَتَبَ فِي قَلْبِهِ الإِيمانَ وَأَيَّدَهُ بِرُوحٍ مِنْهُ وَلَتُرْفَعَنَّ اثْنَتَا عَشْرَةَ رَايَةً مُشْتَبِهَةً لا يُدْرَى أَيٌّ مِنْ أَيٍّ، قَالَ فَبَكَيْتُ ثُمَّ قُلْتُ فَكَيْفَ نَصْنَعُ؟ قَالَ: فَنَظَرَ إِلَى شَمْسٍ دَاخِلَةٍ فِي الصُّفَّةِ فَقَالَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ تَرَى هَذِهِ الشَّمْسَ؟ قُلْتُ: نَعَمْ، فَقَالَ وَاللَّهِ لأَمْرُنَا أَبْيَنُ مِنْ هَذِهِ الشَّمْسِ.

ـ عَلِيُّ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ سَهْلِ بْنِ زِيَادٍ، وَمُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى وَغَيْرُهُ عَنْ أَحْمَدَ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَعَلِيُّ بْنُ إبراهيم عَنْ أَبِيهِ، جَمِيعاً عَنِ ابْنِ مَحْبُوبٍ عَنْ هِشَامِ بْنِ سَالِمٍ عَنْ أَبِي حَمْزَةَ عَنْ أَبِي إِسْحَاقَ السَّبِيعِيِّ عَنْ بَعْضِ أَصْحَابِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام مِمَّنْ يُوثَقُ بِهِ، أَنَّ أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ عليه السلام تَكَلَّمَ بِهَذَا الْكَلَامِ وَحُفِظَ عَنْهُ وَخَطَبَ بِهِ عَلَى مِنْبَرِ الْكُوفَةِ: اللّهم إِنَّهُ لا بُدَّ لَكَ مِنْ حُجَجٍ فِي أَرْضِكَ، حُجَّةٍ بَعْدَ حُجَّةٍ عَلَى خَلْقِكَ، يَهْدُونَهُمْ إِلَى دِينِكَ وَيُعَلِّمُونَهُمْ عِلْمَكَ كَيْلا يَتَفَرَّقَ أَتْبَاعُ أَوْلِيَائِكَ، ظَاهِرٍ غَيْرِ مُطَاعٍ أَوْ مُكْتَتَمٍ يُتَرَقَّبُ، إِنْ غَابَ عَنِ النَّاسِ شَخْصُهُمْ فِي حَالِ هُدْنَتِهِمْ فَلَمْ يَغِبْ عَنْهُمْ قَدِيمُ مَبْثُوثِ عِلْمِهِمْ، وَآدَابُهُمْ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ مُثْبَتَةٌ فَهُمْ بِهَا عَامِلُونَ، وَيَقُولُ عليه السلام فِي هَذِهِ الْخُطْبَةِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: فِيمَنْ هَذَا وَلِهَذَا؟ يَأْرِزُ الْعِلْمُ إِذَا لَمْ يُوجَدْ لَهُ حَمَلَةٌ يَحْفَظُونَهُ وَيَرْوُونَهُ كَمَا سَمِعُوهُ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَيَصْدُقُونَ عَلَيْهِمْ فِيهِ، اللّهم فَإِنِّي لأَعْلَمُ أَنَّ الْعِلْمَ لا يَأْرِزُ كُلُّهُ وَلا يَنْقَطِعُ مَوَادُّهُ، وَإِنَّكَ لا تُخْلِي أَرْضَكَ مِنْ حُجَّةٍ لَكَ عَلَى خَلْقِكَ، ظَاهِرٍ لَيْسَ بِالْمُطَاعِ أَوْ خَائِفٍ مَغْمُورٍ كَيْلا تَبْطُلَ حُجَّتُكَ وَلا يَضِلَّ أَوْلِيَاؤُكَ بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَهُمْ، بَلْ أين هُمْ وَكَمْ هُمْ اولئك الأَقَلُّونَ عَدَداً الأعظمونَ عِنْدَ اللَّهِ قَدْراً.

ـ الْحُسَيْنُ بْنُ مُحَمَّدٍ عَنْ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنِ الْقَاسِمِ بْنِ إِسْمَاعِيلَ

الأَنْبَارِيُّ عَنْ يَحْيَى بْنِ الْمُثَنَّى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُكَيْرٍ عَنْ عُبَيْدِ بْنِ زُرَارَةَ عَنْ أَبِي عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام قَالَ: لِلْقَائِمِ غَيْبَتَانِ يَشْهَدُ فِي إِحْدَاهُمَا الْمَوَاسِمَ يَرَى النَّاسَ وَلا يَرَوْنَهُ.

- عَلِيُّ بْنُ إبراهيم عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ الْحُسَيْنِ عَنِ ابْنِ أَبِي نَجْرَانَ عَنْ فَضَالَةَ بْنِ أَيُّوبَ عَنْ سَدِيرٍ الصَّيْرَفِيِّ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ فِي صَاحِبِ هَذَا الأَمْرِ شَبَهاً مِنْ يُوسُفَ عليه السلام قَالَ قُلْتُ لَهُ كَأَنَّكَ تَذْكُرُ حَيَاتَهُ أَوْ غَيْبَتَهُ قَالَ فَقَالَ لِي وَمَا يُنْكَرُ مِنْ ذَلِكَ، هَذِهِ الأُمَّةُ أَشْبَاهُ الْخَنَازِيرِ، إِنَّ إِخْوَةَ يُوسُفَ عليه السلام كَانُوا أَسْبَاطاً أَوْلادَ الأَنْبِيَاءِ، تَاجَرُوا يُوسُفَ وَبَايَعُوهُ وَخَاطَبُوهُ وَهُمْ إِخْوَتُهُ وَهُوَ أَخُوهُمْ فَلَمْ يَعْرِفُوهُ حَتَّى قَالَ أَنَا يُوسُفُ وَهَذَا أَخِي، فَمَا تُنْكِرُ هَذِهِ الأُمَّةُ الْمَلْعُونَةُ أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ عزّ وجلّ بِحُجَّتِهِ فِي وَقْتٍ مِنَ الأَوْقَاتِ كَمَا فَعَلَ بِيُوسُفَ؟ إِنَّ يُوسُفَ عليه السلام كَانَ إِلَيْهِ مُلْكُ مِصْرَ، وَكَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ وَالِدِهِ مَسِيرَةُ ثَمَانِيَةَ عَشَرَ يَوْماً، فَلَوْ أَرَادَ أَنْ يُعْلِمَهُ لَقَدَرَ عَلَى ذَلِكَ، لَقَدْ سَارَ يَعْقُوبُ عليه السلام وَوُلْدُهُ عِنْدَ الْبِشَارَةِ تِسْعَةَ أَيَّامٍ مِنْ بَدْوِهِمْ إِلَى مِصْرَ، فَمَا تُنْكِرُ هَذِهِ الأُمَّةُ أَنْ يَفْعَلَ اللَّهُ جَلَّ وَعَزَّ بِحُجَّتِهِ كَمَا فَعَلَ بِيُوسُفَ، أَنْ يَمْشِيَ فِي أَسْوَاقِهِمْ وَيَطَأَ بُسُطَهُمْ حَتَّى يَأْذَنَ اللَّهُ فِي ذَلِكَ لَهُ كَمَا أَذِنَ لِيُوسُفَ؟ قَالُوا أَ إِنَّكَ لأَنْتَ يُوسُفُ قَالَ أَنَا يُوسُفُ.

- عَلِيُّ بْنُ إبراهيم عَنِ الْحَسَنِ بْنِ مُوسَى الْخَشَّابِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُوسَى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ بُكَيْرٍ عَنْ زُرَارَةَ قَالَ سَمِعْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عليه السلام يَقُولُ: إِنَّ لِلْغُلامِ غَيْبَةً قبل إن يَقُومَ، قَالَ: قُلْتُ وَلِمَ؟ قَالَ: يَخَافُ وَأَوْمَأَ بِيَدِهِ إِلَى بَطْنِهِ (يعني القتل)، ثُمَّ قَالَ: يَا زُرَارَةُ وَهُوَ الْمُنْتَظَرُ وَهُوَ الَّذِي يُشَكُّ فِي وِلادَتِهِ، مِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ مَاتَ أَبُوهُ بِلا خَلَفٍ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ حَمْلٌ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَقُولُ إِنَّهُ وُلِدَ قَبْلَ مَوْتِ أَبِيهِ بِسَنَتَيْنِ وَهُوَ الْمُنْتَظَرُ، غَيْرَ أَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ يُحِبُّ أَنْ يَمْتَحِنَ الشِّيعَةَ، فَعِنْدَ ذلك يَرْتَابُ الْمُبْطِلُونَ يَا زُرَارَةُ، قَالَ قُلْتُ جُعِلْتُ فِدَاكَ إِنْ أَدْرَكْتُ ذَلِكَ الزَّمَانَ أَيَّ شَيْءٍ أَعْمَلُ؟ قَالَ يَا زُرَارَةُ إِذَا أَدْرَكْتَ هَذَا الزَّمَانَ فَادْعُ بِهَذَا الدُّعَاءِ (اللّهم عَرِّفْنِي نَفْسَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي نَفْسَكَ لَمْ أَعْرِفْ نَبِيَّكَ، اللّهم عَرِّفْنِي رَسُولَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي رَسُولَكَ لَمْ أَعْرِفْ حُجَّتَكَ، اللّهم عَرِّفْنِي حُجَّتَكَ فَإِنَّكَ إِنْ لَمْ تُعَرِّفْنِي حُجَّتَكَ ضَلَلْتُ عَنْ دِينِي.

ومما يزيدنا ثقة ويقينا بصحة معتقد الشيعة، هٰذا النظام المحكم الذي جعل هذه الطائفة تحافظ على هويتها رغم تعرضها على مر التاريخ لمحاولات التشويه والتصفية والإبادة، من غابر الزمان وإلى يومنا هٰذا، على يد الطغاة والمجرمين، وآخر فصول تلك المؤامرات ما عاشه شعب العراق

في ظلم رأيناه بأم أعيننا وعايشناه قبل سقوط طاغية بغداد، الذي كان مشروعه الذي حاول به إكمال مهمة أسلافه (تصفيه الشيعة)، وهكذا على امتداد التاريخ الذي كان فيه الشيعة دوماً في صف المعارضة، منذ تولّي الخليفة الأول وإلى يومنا هذا مع استثناءات تخللت هذه الرحلة الطويلة...

رغم كل ذلك ما زالت الشيعة كالطود الشامخ بعقائدها المستفادة من مشكاة نور النبوة.. وبنظامها الديني (الاجتماعي والسياسي) الذي أرسى دعائمه النبي وأحد عشر إماماً معصومين يزرعون في أفئدة شيعتهم حقائق الإيمان ونور العقيدة الصافية التي عم شعاعها الآفاق، ويتجلى ذلك في علمائهم الأبرار الذين كانوا على مر التاريخ منارات أشاد بفضلهم الأعداء قبل الأخِلاّء.. وأنا لا أقول ذلك من خلال معلومات استقيتها من كتب أو نقلت لي بواسطة...

لقد عشت كل ذلك بكياني فسافرت إلى قم ومشهد وطهران ثم إلى العراق مهد رسالات الأنبياء حيث النجف وكربلاء وبغداد.. التقيت بمراجعهم وعلمائهم، ودخلت مساجدهم وحسينياتهم، وتعرفت على الشيعة من مختلف أنحاء العالم ابتداء من شيعة المنطقة الشرقية بالسعودية مروراً بالبحرين والكويت وعمان والأردن والعراق وسوريا وكذلك من ايران

وأذربيجان وتركيا والفلبين وافغانستان والهند وباكستان وهناك ازداد يقيني بمعاني الولاية لأهل البيت عليهم السلام، إذ رأيت في علم علمائهم نور الوحي، فما جلست مع أحدهم إلا وازددت قرباً من الله تعالى وحباً وتمسكاً بالنبي الاكرم وأهل بيته عليهم السلام وتصورت كيف كانت علوم أهل البيت عليهم السلام التي أعطوها لشيعتهم، وتجلت لديّ بوضوح أكثر حكمة الإمامة رغم غيبة الإمام الثاني عشر عليه السلام، لأنني أحسست بهيبته وهيمنته من خلال ما رأيته من علماء الشيعة الذين هم نواب لحضرته المقدسة، وقد أوصى شيعته بالرجوع إليهم في غيبته قائلاً (وأما الحوادث الواقعة فارجعوا فيها إلى رواة حديثنا فإنهم حجتي عليكم وأنا حجة الله عليهم) .. فالعالم عند الشيعة هو القائد الحقيقي، ومؤسسة المرجعية تضاهي مؤسسات الدول بل وأعظم، لأن المرجع يتبعه الملايين من كل أنحاء العالم.. وأقوى مصادر القوة التي حافظت على الكيان الشيعي هي التفافهم حول علماء الدين، تعبيراً عن تسليمهم وانتظاراً لصاحب العصر والزمان عليه السلام الإمام المهدي بن الحسن العسكري، كما أني رأيت المعنى الحقيقي لكلمة عالم هناك.. فهو كما يتدفق العلم من كل جوانبه بما أخذه وتعلمه من أهل البيت عليهم السلام، فإنه يجسد كل معاني القيم السامية من تواضع وتقوى وورع..

ولن أترك لقلمي الاسترسال في ذلك، لأنني على ثقة بأنني لن أستطيع رسم تلك اللوحة الراقية المعبرة عن معني الرسالة.. ولكنني أسجل خواطري لواقع رأته عيناي وسمعته أذناي[1]، ولا أعصم بذلك الواقع الشيعي... فهم بشر والبشر كلهم محط ابتلاء واختبار على مستوى العقيدة وعلى مستوى السلوك.. وإنما أبين نقاط القوة عند هؤلاء والتي هي بنت العقيدة الصحيحة المتصلة بنور الوحي بلا فاصلة.. فتأمل...

ختاماً أتمنى أن يساهم كتابي هذا في إثارة دفائن العقول، رغم وجود الكثير الذي يمكنني الكتابة فيها ضمن هذا المضمار (إثبات الحق)، إلا أنني أرى في ما كتبت كفاية إلى حد ما لإيصال رسالتي لكل الناس ليتبينوا مواطيء أقدامهم، فيزداد المؤمن يقيناً ويسلّم المرتاب، أو لا أقل يبدأ في

---

(١) من الذين تشرفت بلقائهم:

المرجع الديني السيد الشيرازي قدس سره.

المرجع الديني السيد المدرسي دام ظله.

المرجع الديني ناصر الشيرازي دام ظله .

المرجع الديني السيد صادق الشيرازي دام ظله.

المرجع الديني السيد علي السيستاني دام ظله .

المرجع الديني الشيخ بشير النجفي دام ظله.

آية الله السيد هادي المدرسي .

آية الله الشيخ لطف الله الصافي دام ظله .

آية الله الشيخ جعفر السبحاني دام ظله و كثير من علماء السعودية والبحرين والهند الخ...

التحرك نحو الاتجاه الصحيح.. والأمر يستحق العناء..

من نور الزهراء عليها السلام

شكراً وعرفاناً لله تعالى أختم كتابي بخطبة لسيدتي ومولاتي الصّدّيقة الطاهرة أم الذرية المباركة بنت النبي المصطفى وزوج الوصي المرتضى فاطمة الزهراء عليها السلام أمام نساء الأنصار حيث حمّلتهم رسالة إلى رجالهن.. وإلى كل الرجال، فإليك بالتحفة عزيزي القارئ لتعلم أين يكمن سر الله تعالى.

خطبة الزهراء عليها السلام

لما مرضت فاطمة عليها السلام المرضة التي توفيت فيها دخلت عليها نساء المهاجرين والأنصار يعدنها، فقلن لها: كيف أصبحت من علتك يا ابنة رسول الله؟ فحمدت الله وصلّت على أبيها ثم قالت:

أصبحت والله عائفة لدنياكن، قالية لرجالكن، لفظتهم بعد أن عجمتهم[1]، وسئمتهم بعد أن سبرتهم، فقبحاً لفلول الجد، واللعب بعد الجد وقرع الصفاة وصدع القناة، وختل الآراء[2] وزلل الأهواء، وبئس ما

---

(١) لفظتهم: رميت بهم وطرحتهم. بعد أن عجمتهم: بعد أن اختبرتهم.

(٢) زيفها وخداعها.

قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون، لا جرم لقد قلدتهم ربقتها وحمّلتهم أوقتها[١] وشننت عليهم غارتها[٢]، فجدعاً وعقراً وبعداً للقوم الظالمين، ويحهم أنى زعزعوها عن رواسي الرسالة وقواعد النبوة والدلالة، ومهبط الروح الأمين والطبين[٣] بأمور الدنيا والدين، ألا ذلك هو الخسران المبين، وما الذي نقموا من أبي الحسن عليه السلام؟ نقموا والله منه نكير سيفه، وقلة مبالاته لحتفه، وشدة وطأته ونكال وقعته، وتنمره في ذات الله، وتالله لو مالوا عن المحجة اللائحة وزالوا عن قبول الحجة الواضحة، لردهم إليها وحملهم عليها، ولسار بهم سيراً سجحاً[٤] لا يكلم حشاشه[٥]، ولا يكلّ سائره، ولا يمل راكبه، ولأوردهم منهلاً نميراً صافياً روياً تطفح ضفتاه ولا يترنق جانباه، ولأصدرهم بطاناً ونصح لهم سراً وإعلاناً ولم يكن يتحلى من الدنيا بطائل، ولا يحظى منها بنائل، غير ري الناهل وشبعة الكافل، ولبان لهم الزاهد من الراغب، والصادق من الكاذب، ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض، ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا

---

(١) ثقلها.

(٢) وجهتها عليهم من كل جهة.

(٣) الفطن الحاذق العالم بكل شيء.

(٤) سهلاً.

(٥) جرحه.

يكسبون، والذين ظلموا من هؤلاء سيصيبهم سيئات ما كسبوا وما هم بمعجزين، ألا هلم فاسمع وما عشت أراك الدهر عجباً، وإن تعجب فعجب قولهم، ليت شعري إلى أي سناد استندوا، وإلى أي عماد اعتمدوا، وبأية عروة تمسكوا، وعلى أية ذرية أقدموا واحتنكوا[١]، لبئس المولى ولبئس العشير، وبئس للظالمين بدلاً، استبدلوا والله الذنابى بالقوادم[٢] والعجز بالكاهل[٣]، فرغماً لمعاطس قوم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون، ويحهم أفمن يهدي إلى الحق أحق أن يتبع أم من لا يَهِدّي إلا أن يُهدَى فما لكم كيف تحكمون، أما لعمري لقد لقحت فنظرة ريثما تنتج، ثم احتلبوا ملء القعب دماً عبيطاً[٤] وذعافاً مبيداً، هنالك يخسر المبطلون، ويعرف الباطلون غبّ[٥] ما أسس الأولون، ثم طيبوا عن دنياكم أنفساً، وطأمنوا للفتنة جاشاً، وأبشروا بسيف صارم وسطوة معتد غاشم، وبهرج شامل واستبداد من الظالمين يدع فيئكم زهيداً وجمعكم حصيداً، فيا حسرتي لكم وأنى بكم، وقد عميت عليكم أنلزمكموها وأنتم لها كارهون؟

---

(١) احتنكه: استولى عليه.

(٢) الذنابى: ذنب الطائر، والقوادم: مقادم ريشه.

(٣) العجز: مؤخر الشيء، والكاهل: مقدم أعلى الظهر مما يلي العنق.

(٤) القعب : القدح، والدم العبيط: الخالص الطري.

(٥) الذعاف: السم الذي يقتل من ساعته، الغب: العاقبة.

قال سويد بن غفلة: فأعادت النساء قولها عليها السلام على رجالهن، فجاء إليها قوم من المهاجرين والأنصار معتذرين، وقالوا: يا سيدة النساء لو كان أبو الحسن ذكر لنا هذا الأمر قبل أن يبرم العهد ويحكم العقد، لما عدلنا عنه إلى غيره، فقالت عليها السلام: إليكم عني فلا عذر بعد تعذيركم ولا أمر بعد تقصيركم.




مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

المحتويات

الإخراج الفني: مناف البغدادي

monaf@maktoob.com